مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم

دراسة في أسبابه ومظاهره

د. إسماعيل الحسني

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم

دراسة في أسبابه ومظاهره

مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم
دراسة في أسبابه ومظاهره

إسماعيل الحسني

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية
الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم؛دراسة في أسبابه ومظاهره

تأليف: إسماعيل الحسني

موضوع الكتاب: ١- الإصلاح ٢- أسباب الإصلاح ٣- مظاهر الإصلاح ٤- مفاهيم قرآنية ٥- دراسات قرآنية ٦- دراسات إسلامية

ردمك (ISBN): ٩٧٨-١-٥٦٥٦٤-٨٠١-٢

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٧/٢/٩٩٩)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

النشر والتوزيع

مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع
عمان - الأردن
هاتف: ٩٦٢٧٩٧٠٠٠٧٠٩+ - فاكس: ٩٦٢٦٤٦٣٩٠٠٧+
Email: gm@hncjo.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة ٩

أولاً: أهمية مفهوم الإصلاح ١٠

ثانياً: حدود التحليل اللغوي لمفهوم الإصلاح ١٨

ثالثاً: مفهوم الإصلاح وغياب الوعي بأسبابه ومظاهره ٢٣

الفصل الأول

الأسباب المكونة للإصلاح

أولاً: التدافع في مقابل الجمود ٢٩

ثانياً: التوسط في مقابل التطرف ٥٥

الفصل الثاني

مظهر إصلاح الاعتقاد

أولاً: مبدئية حقيقة الوحدانية وفساد السماوات والأرض ٦٩

ثانياً: أركان الإيمان ومصالحه ٧١

ثالثاً: التصور الاعتقادي ٧٤

الفصل الثالث

مظهر إصلاح التفكير

أولاً: المبادئ العقلية لصلاح التفكير ٨١

ثانياً: دور المبادئ العقلية في صلاح التفكير ٨٥

الفصل الرابع

مظهر إصلاح العمل

أولاً: العمل النفساني ٩١

ثانياً: العمل البدني ٩٨

ثالثاً: العمل التدبيري ١١٥

الخاتمة ١٤٥

المراجع ١٥٣

الكشاف ١٦١

المقدمـة

الحمد لله الذي رفع العمل الصالح،[1] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعلم المفسد من المصلح،[2] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الرحمة المهداة للعالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعـد:

يكاد يجمع المتتبعون على أن كلمة الإصلاح من الكلمات الرئيسة التي كثر ولا زال يكثر تداولها في الخطاب الإعلامي والسياسي، وفي مختلف أشكال النتاج العلمي والفكري المنشغل بشؤون المسلمين وأحوالهم. نعم لا شك في ذلك، ولكن سرعان ما يعترف معظم مؤرخينا ومفكرينا وفقهائنا بفشل الإصلاح وبعدم قدرة معظم المسلمين على تجاوز عوائقه وموانعه.

ينبهنا المؤرخ الأستاذ عبد الله العروي على فشل الإصلاح في العالم العربي لأسباب متعددة، أبرزها وأقواها أن الإصلاح لم يكن يحمل معنىً واحداً بالنسبة للحاكمين والمحكومين، أو لمن يتكلم باسمهم من فقهاء أو

(١) قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

(٢) قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

مثقفين.[1] ويلحّ المفكر الأستاذ محمد عابد الجابري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كون الإصلاح الذي يطمح غيرنا إقامته في بلداننا قد بدأ، كما قال: "بالإفساد، ليس فقط إفساد ما كان من صلاح قائم أو منتظر، بل أيضاً بإرباك وطمس الطريق إلى الإصلاح الحقيقي، ومن ثم تعتيم الرؤية التي تنشد الإصلاح."[2] ويستخلص الفقيه الأستاذ العلواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تجاربه العملية ومن دراساته الأكاديمية خلاصة مفادها: أن الفهم المنهجي للإصلاح هو "الغائب الأول"[3] عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة.

أولاً: أهمية مفهوم الإصلاح

ننبه في البداية إلى أنه ما من آية من آيات الكتاب المجيد إلا وتنطوي على مصلحة أو مصالح، علمها من علمها وجهلها من جهلها، ولهذا لا نستغرب ارتباط البحث في الخطاب الإصلاحي القرآني بمباحث علمية متعددة، فالبحث في هذا الخطاب مرتبط بالفقه، إذ الهدف من العبادات

---

(١) يعني الإصلاح بالنسبة للحاكم تقوية السلطة بذريعة مدافعة الأعداء فيبدأ بتدريب الجيش وتسليحه بكيفية عصرية، بيد أن الإصلاح في عين المحكومين هو القضاء على أسباب الفساد والانحطاط، وفي مقدمتها الاستبداد. انظر:

– العروي، عبد الله. **مفهوم الدولة**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٨، ٢٠٠٨م، ص١٣٠ وما بعدها.

(٢) الجابري، محمد عابد. **في نقد الحاجة إلى الإصلاح**، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٥-١٦.

(٣) العلواني، طه جابر. **أبعاد غائبة في فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة**، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٧٦.

والمعاملات والعقوبات وغيرها من الأبواب الفقهية هو مصلحة الناس.[1]

كما أن البحث في هذا الخطاب الإصلاحي مرتبط بعلم الكلام، يكفي أن نلمح في هذا الصدد إلى أن المعتزلة قد جعلوا من فكرة "الصلاح" أصلاً من الأصول التي يقوم عليها مذهبهم، بل قال بعضهم بـ"الأصلح"؛ أي أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح.

كما يتحدث علماء الأصول، خاصة أهل المقاصد منهم، عن حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال التي تنتظم في خيوطها الشريعة الإسلامية معاني وأحكاماً ومقاصد. ومن ثم ارتبط عندهم دوام صلاح الإنسان الفرد، وصلاح المجتمع والأمة، بمدى إقامة هذا الحفظ في مراتبه الثلاث: الضروريات والحاجيات التحسينات، فضلاً عن مكملات كل مرتبة.

كما أن المفسر للقرآن المجيد منشغل بكشف المناسبات[2] بين الآيات

---

(١) فعلى سبيل المثال شرعت العقوبات والحدود للمحافظة على الصلاح الأرضي الذي من مظاهره الإبقاء على النفس الإنسانية وعدم إزهاقها بغير حق لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(٢) لا يخفى أنه لا يجرؤ على الخوض في هذا المبحث إلا الصفوة من العلماء المقتدرين. وقديماً اعترف بعضهم بقلة الحاملين لـ"علم المناسبة" فلم يتعرض له، كما قال أبو بكر بن العربي: "إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه". نقلاً عن:

- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٩٨٧م، ج١، ص١٣٨-١٣٨. =

القرآنية، وميز بعض علماء القرآن انطلاقاً من فهم محدد لعلاقة النسخ القرآني بالمصلحة، بين "القرآن الذي لا يعمل به"، وبين "القرآن الذي يعمل به."[1]

كما يرتبط البحث في الإصلاح القرآني بمبحث القصص القرآني؛ لأن المقصود منها إصلاح الناس لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. يفيد قوله ﴿أَحْسَنَ﴾ أن المقياس الحسن في القصص القرآنية لا

= والحق أن هذا عمل علمي يقتضي بذل الكثير من الجهد الصادق والنظر الدقيق أولاً في مقامات القرآن المجيد، أعني المقامات المقالية والحالية للآيات وللسور القرآنية. قال الأستاذ دروزة: "إن العبارات القرآنية إذا ما نظر فيها مع سياقها السابق أو اللاحق أو كليهما زال الوهم فيها، واتسقت التقريرات والمعاني القرآنية". انظر:

- دروزة، محمد عزة. **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ج١، ص٢٣٧.

نقرر هذا المقتضى على الرغم مما قاله بعض العلماء من تعذر الوقوف على وجه المناسبة في كل الخطاب القرآني. قال العز بن عبد السلام (توفي ٦٦٠هـ): "القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض". نقلاً عن:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، (د. ت.)، ج١، ص١١٦.

(١) نقرأ هذا التمييز في قول الزركشي: "وإذا جاز أن يكون قرآن ولا يعمل به جاز أن يكون قرآن يعمل به ولا يتلى، وذلك أن الله عز وجل أعلم بمصالحنا، وقد يجوز أن يعلم من مصلحتنا تعلق العمل بهذا الوجه".

- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله. **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط٣، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ج٢، ص٤١.

يتجسد في مجرد الإحماض[1] وتجديد النشاط، وإنما معيار الحسن فيها هو نفع الناس وانتظام شؤونهم المختلفة؛ إذ يبصر الاطلاع على القصص صاحبه على كيفيات ترتيب المسببات على الأسباب سواء في التعمير والعمران أم في التخريب والبناء. قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢]. كما تبصر قارئها بأحوال الأمم من أجل الاعتبار واستخلاص الدروس والعظات التي تفيد الحاضر ونستشرف بها آفاق المستقبل. وفي سياق هذا الإطار قص الله تعالى في كتابه أحوال أهل نوح، وعاد، وثمود، وأهل الرس، وأصحاب الأيكة.

والمستخلص من هذه الصور المتعددة من حضور الخطاب الإصلاحي عند علماء الإسلام مبلغ وعيهم بأهميته، ومن ثم يكفي أن تكون هذه الأهمية دافعاً قوياً يفسر اهتمام العالم المسلم بمفهوم الإصلاح في القرآن المجيد وانشغاله بخطابه وببنيته وبأسبابه وبمسائله المتعددة. فلم يرفع القرآن المجيد أمراً من الأمور قدر رفعه لأمر "العمل الصالح" لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].[2]

---

(١) الإحماض: يعني الإفاضة في ما يؤنس من حديث وذلك بذكر الأحاديث المستملحة والمستعذبة.

(٢) إذ وقع في هذه الآية إخبار رفع "العمل الصالح" بجملة "يرفعه"، ولم يعطف على "الكلم الطيب" في حكم الصعود إلى الله. يتمثل المقصد من ذلك في فائدتين سبق أن أوضحهما الإمام ابن عاشور بقوله: "أولاهما: الإيماء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة؛ لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعاً من معظم الكلم الطيب، عدا=

يلاحظ المرء، انطلاقاً من أهمية الخطاب الإصلاحي القرآني بصفة عامة، أن كل المصلحين يدعون إلى الانطلاق من القرآن الكريم في رفع شعار الإصلاح، وفي الدعوة إلى ممارسته، حيث نجد في كلامهم استحضاراً لكثير من الآيات التي تلح على الإصلاح وتدعو إلى الاتصاف به، كما نجد في كلامهم استحضاراً لبعض تعاريف الإصلاح التي قدمها المفسرون والمصلحون القدامى.

وفي نظري ثمة أمرين يعضدان هذه الأهمية في الوقت الحاضر؛ أولهما: تحول العالم بسبب تطور وسائل الاتصال والإعلام إلى البنية المتعاضدة والمتساندة والمترابطة في مكوناتها وفي عناصرها. والثاني: بلوغ العلم الإنساني بالمجتمع وبالإنسان وبالكون مبلغاً معرفياً متطوراً بالقياس إلى ما بلغه علم الإنسان في القرون والعقود الماضية. وهما أمران سهلا كثيراً من التعارف بين البشر. وهنا لا نقصد بالتعارف معناه التقني الذي شبهه الأستاذ سيف الدين عبد الفتاح بـ" القشرة الاتصالية والمعلوماتية،"[1] وإنما

= كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة، مثل دعاء يوم عرفة، فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه كقول النبي ﷺ: "من تصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً تلقاها الرحمن بيمينه، وكلتا يديه يمين، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل الجبل." وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء، فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته. وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعله ومفعوله فلا يناسبه إسناد الصعود إليه، وإنما يحسن أن يجعل متعلقاً لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع." انظر:

– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٢، ص٢٧٣.

(١) عبد الفتاح، سيف الدين. **العولمة والإسلام رؤيتان للعالم**، دمشق: دار الفكر، ط١، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص١١٣.

نقصد به الانفتاح المستمر والواعي الذي يحفزنا جميعاً على التفكير النقدي والمعالجة الجادة لإشكالية المفاسد التي تنتشر في أنحاء المعمورة، خاصة مفاسد العنف والمجاعات وسوء توزيع الثروات والبيئات الملوثة والصراع والطغيان... وعليه لما كان التعارف انفتاحاً على ما عند الآخرين من مكاسب حضارية وإنسانية كان إمكانية من الإمكانيات التي تسهم في تحقيق تكامل الطاقات من أجل تحقيق الصلاح المنشود؛ لذا لا بد من استثمار هذين الأمرين حتى يكون التعارف بين الناس من أجل مصلحة التآلف لا من أجل مفسدة التنافر لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إننا لا نروم في هذا البحث استقراء الفساد والصلاح التي ستكون في اليوم الآخر، يوم القيامة، يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، فيجازي الله تعالى المصلح أو المحسن على إصلاحه أو إحسانه، ويعاقب المفسد المسيء على إفساده أو إساءته.[1] كلا ليس هذا هو غرضنا؛ لأن ما يهمنا في هذا

---

(١) لو لم يكن هذا اليوم يوم حساب وعقاب لتعرت الأعمال الإنسانية عن الفائدة، بل ربما كان بعض المسيئين في الدنيا أحسن حالاً فيها من المحسنين، وهذا مناقض للفائدة المفهومة من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: ٢٧ - ٢٨]؛ لذا اقتضت الحكمة الإلهية الجزاء أو العقاب على نوعية الأعمال لقوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس: ٤]، ولقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ [الطلاق: ١١]، ولقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣]. الواو في "ومن صلح" واو المعية التي تفيد أن الله تعالى=

المقام هو الإصلاح والإفساد الذين يتعلقان بحياتنا الدنيوية المحدودة التي لها بداية ونهاية، محيا وممات، شبيبة وهرم دليل ذلك أن الله تعالىٰ ساق اعتراض الملائكة في قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] مساق الاستفهام للتعجب والتحير.(١)

ندرك، انطلاقاً من هذا المساق، أنهم علموا أن مراد الله عز وجل من خلق الأرض ونظامها هو عمرانها وإصلاحها، وليس مراده عز وجل تخريبها وإفسادها، نعض علىٰ هذا التنبيه بالنواجذ؛ لأن الاهتمام بإصلاح أعمالنا الدنيوية نوع من أنواع الفقه الذي غفل عنه المسلمون كثيراً بدعوىٰ تحقير الحياة الدنيا فوقعوا في محظور إهمال إصلاحها.(٢)

= جعل في أصول أهل الجنة وفروعهم وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحقوا بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم بهم، فلهم الفضل في الحالين. وهذا خلافه في قوله: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ...﴾ [الصافات: ٢٢] لأن مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف. وفي إطار هذه الآثار نفهم البشرىٰ الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]. انظر:

– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٣١-١٣٢.

(١) وكان موقف الملائكة هنا مماثل لموقف الباحث، وهو الموقف الملقب بالاعتراض في علم آداب البحث، الناشئ عن جريان المبحوث معه علىٰ خلاف ما هو طريقته، أو علىٰ خلاف ما هو الطريقة المقررة عند العقلاء.

– ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٧م، ص٤١-٤٢.

(٢) إن ملاحظة هذا المعنىٰ العملي لمن أكبر أسباب فلاح المسلمين، ولله در الإمام ابن عاشور =

إن التفكير في الإصلاح، الذي جاء به القرآن المجيد واكتنزته سوره وآياته، هو في العمق مقاربة مستأنفة لسؤالين مفصليين ومتلازمين، لا يغني الجواب عن أحدهما دون الجواب عن الآخر:

- كيف يكون فهمنا للإصلاح في القرآن المجيد فهماً منهجياً؟

= عندما قال: "حتىٰ إذا احترفوا الكلام، وتعلقوا بالأوهام، وتطلبوا المسببات من غير أسبابها، وأتوا البيوت من ظهورها لا من أبوابها، صاروا إلىٰ ما ترىٰ، وحق عليهم معنىٰ البيت الذي به المثل جرىٰ:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري علىٰ اليبس

ينسب هذا البيت للمرأة الصالحة العابدة رابعة العدوية، وهو ما نص عليه ابن عاشور. انظر:

- ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٥٩-٦٠.

كما نجد أيضاً البيت منسوباً إلىٰ أبي العتاهية، فقد روي عن أبي العتاهية أنه دخل يوماً علىٰ هارون الرشيد فقال له الرشيد: أنشدني، فقال: اجعل لي الأمان. قال: أنت آمن، فأنشد وكان مما أنشده قوله:

ما بال دينك ترضىٰ أن تدنسه وثوبك الدهر مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري علىٰ اليبس

انظر:

- ابن الجوزي، **بستان الواعظين ورياض السامعين**، تحقيق أيمن البحيري، بيروت، لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٢، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٨م)، ص ١٦٦-١٦٧.

ويراجع في هذه النقطة كتابنا:

- الحسني، إسماعيل. **مقاصد الشريعة وأسئلة الفكر المقاصدي دراسة في أسئلة التدقيق المصلحي والتوظيف المنهجي**، الرباط: منشورات الرابطة المحمدية، ط١، ٢٠١٣م، الفصل الأول الموسوم بالموضوع المصلحي بين التعميم الاعتقادي والتدقيق العلمي، ص٢٣.

- كيف نطبق الإصلاح الذي جاء به القرآن على الأمة في كل زمان وفي كل مكان وفي كل مجتمع من مجتمعات الأنام؟ على الرغم من وجاهة السؤال الثاني فإنه مسبوق بالسؤال الأول؛ لذا آثرنا في هذه المناسبة أن نبدأ بمعالجته. فهل يتأتى لنا الظفر أو الإمساك المنهجي بالإصلاح القرآني عن طريق التحليل اللغوي؟

ثانياً: حدود التحليل اللغوي لمفهوم الإصلاح

لتكن خطوتنا الأولية للجواب تقديم لمحة عن أهم الاستعمالات المتعددة لمادة صلح وفسد في اللغة العربية، وننبه في البداية إلى أن لفظ "صلح" ومشتقاته وردا بنحو من مئة وثمانين مرة في القرآن المجيد. يقال أصلح الشيء؛ أي جعله صالحاً، ولذلك يطلق الإصلاح على الدخول بين الخصمين؛ لأنه يجعلهم صالحين بعد أن فسدوا، وبذلك تأتلف قلوبهم لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

إذا نسبنا الصلاح إلى الإنسان في قولنا الإنسان الصالح فإننا نعني ما يصدر عنه من أقوال وأفعال حسنة. أما الصالحون من البشر؛ فهم الذين لا تفارقهم صفة الصلاح، كما أننا إذا نسبنا الصلاح أو الإصلاح إلى الأشياء فإننا نعني ما يترتب عليها من نتائج حسنة، من ذلك قولنا المال الصالح، نعني به المال الذي تترتب عليه آثار حسنة.

وإذا نسبنا الصلاح إلى العمل في قولنا العمل الصالح فإن المقصود من ذلك العمل الجاري وفق ما جاء به الدين الإسلامي. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. وعرف الإمام ابن عاشور العمل الصالح في قوله: "العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحاً لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين."[١]

وقولنا الصالحات جمع صالحة، وهي الخصلة أو الفعلة الحسنة، أعني التي توصف بالصلاح لأنهم يقولون صالحة وحسنة ولا يقدرون موصوفاً محذوفاً. الصالحات جمع صالحة، وهي الخصلة والفعلة الموصوفة بالصلاح، والتعريف فيها للاستغراق؛ أي كل الخصال والأفعال الصالحة التي تتوفر على صفة الصلاح. ولتعاطي الصالحات أسباب يستوي الناس جميعاً فيها، ومن أعظمها مراعاة قواعد العدل، والإحسان، والمواساة، وكراهية البغي والعدوان.[٢]

إن الإصلاح جعل الشيء صالحاً؛ أي ذا صلاح؛ أي أنه هو كون الشيء يحصل به منتهى ما يطلب لأجله. ويقابل الإصلاح الإفساد،[٣] كما

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٤، ص٢٢٩.

(٢) قال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لأم بظهر الغيب تأتي

(٣) والجدير بالإشارة إلى أننا اخترنا مادة فسد على الرغم من أن الإصلاح لم يقابل فحسب في =

يقابل الصلاح الفساد. الفاء والسين والدال كلمة واحدة، فسد الشيء يفسد فساداً وفسوداً وهو فاسد وفسيد.[1] وقوم فسدىٰ كما قالوا ساقط وسَقْطَىٰ، قال سيبويه جمعوه جمع هلكىٰ لتقاربهما في المعنىٰ، وتفاسد القوم تدابروا وقطعوا الأرحام، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح، وقالوا هذا الأَمر مفسدة لكذا؛ أَي فيه فساد. وفسد الشيءَ إِذا أباره أو أهلكه.

والفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح.[2] وقيل الفساد: الجدب في البر والبحر تبعاً لقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، ويبلغ عدد المفردات القرآنية من مادة فسد خمسين كلمة، كما جاءت بصيغ متعددة:

= القرآن بالإفساد، بل قوبل أيضاً بالسيئات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. والمقصود بالعمل السيء العمل الفاسد أو عمل الشر، كما في قول حذيفة بن اليمان: "كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني..."

- البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، المنصورة: دار ابن رجب، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦٠٦).

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ج ٤ ص ٥٠٤.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٣، ٢٠٠٢م، ص٦٣٦.

أولها: صيغة الفعل الماضي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وفي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

والثانية: صيغة الفعل المضارع كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤]، وفي قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وفي قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وفي قوله: ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف: ٧٣].

والثالثة: صيغة اسم الفاعل كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠]، وقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

والصيغة الرابعة صيغة المصدر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦]، وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

يبدو من هذا البيان لأهم الاستعمالات اللغوية لمادة صلح وفسد أن التحليل اللغوي يقدم لنا معطيات تتناول أعداد الصيغ اللغوية التي أتت بها استعمالات مادتي صلح وفسد في القرآن المجيد، كما تتناول جملة المعاني التي تتمحور حولها تلك الصيغ، تارة هي معاني إيجابية بالنسبة لمادة صلح تتمثل -على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر- في الإصلاح بين الخصوم، وفي العدل بين المتقاضيَيْن، وفي مواساة الناس والإحسان إليهم، وفي السداد في الأقوال وفي ضبط الأعمال والآثار والنتائج... وتارة أخرى هي معاني سلبية تتمثل -على سبيل المثال، وليس على سبيل الحصر- في السيئات، وفي التخريب، وفي الإذلال، وفي التكبر، وفي تضييع الحقوق.

إن التحليل اللغوي للإصلاح مهم ونافع، ولا يمكن للباحث أن يتخطاه؛ لأنه يوقف صاحبه على جملة المعاني الإيجابية أو السلبية التي تدل عليها هذه المفردة، نعم لا شك في ذلك، ولكنه لا يفضي بنا إلى الإمساك المنهجي ببنية مظاهر الإصلاح في الخطاب القرآني، كما لا يقدرنا على الإحاطة بالأسباب التي تكونه وتفرزه، ومن ثم إن التحليل اللغوي محدود؛ لأنه لا يمكننا من الإحاطة بشبكة العلاقات التي تربط بين مظاهر الخطاب الإصلاحي القرآني، وتسهم بهذه الدرجة أو تلك في بناء مفهوم علمي لبنيته، كما أن التحليل اللغوي لمادتي صلح وفسد محدود؛ لأنه لا يسعفنا في إبراز وجوه العلاقات التي تربط بهذه الدرجة أو تلك خطاب الإصلاح بمواد أخرى تتناولها مفردات قرآنية من قبيل العبادة، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أو من قبيل العمارة أو

الإعمار أو الاستعمار، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ثالثاً: مفهوم الإصلاح وغياب الوعي بأسبابه ومظاهره

حاول بعضهم تحديد مفهوم الإصلاح بصفة عامة، والإصلاح القرآني بصفة خاصة، من ذلك القول بأنه مجرد أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. قال بن تيمية: "الإصلاح هو صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت الملة خير أمة أخرجت للناس."[١]

ومن ذلك القول بأنه توجه في الإتيان بما ينبغي وفي الاحتراز عما لا ينبغي؟ قال الألوسي (توفي ١٢٧٠): "الصلاح عبارة عن الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي، وهو مقول بالتشكيك فيوصف بما هو أعلى من مراتب الأنبياء."[٢]

ومن ذلك القول بأنه تمام الاستقامة على الدين. قال الإمام ابن عاشور: "الصلاح تمام الاستقامة في دين الحق؟"[٣]

---

(١) الحرّاني، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، تحقيق: علي بن محمد العمران، جدة والرياض: المجمع العالمي للفقه الإسلامي ودار عالم الفوائد للنشر، ١٤٢٩هـ، ص٩٤.

(٢) الألوسي، شهاب الدين محمود. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار الفكر، (١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م)، ج٧، ص٢١٤.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤ ص٣١٧.

ومن ذلك القول بأنه مسلسل غير مكتمل أو مسلسل مفتوح على المستقبل وعلى ما تفرزه مستجدات الحياة الإنسانية، وفي هذا المضمار سبق للأستاذ عبد القادر حامد التيجاني أنْ حدد مفهوم الإصلاح بقوله: "الانخراط في عملية متواصلة من إقامة نظام اجتماعي عادل، ثم حمايته وتطويره."[١]

ومن ذلك القول بأنه هو الإيمان والعمل بالطاعات، وأن الفساد هو ما يقابله من "الكفر والعمل بالمعصية"، كما قال الطبري.[٢]

ومن ذلك القول بأنه هو الثبات على حالة الاعتدال والاستقامة، أما الفساد فهو "التغير عن حالة الاعتدال والاستقامة"، كما قال أبو حيان التوحيدي.[٣]

ومن ذلك قول الأستاذ أحمد عبادي بأن الإصلاح إمكانية أو مهارة لها قوام ومظهر وعناصر، قوامها هو: "نقاء الفطرة التي تضمن المواءمة مع الكون والإنسان". ومظهرها متجسد في "قرن الوجهة الملائمة بالحركة التي يفرضها الموقع ليتم التوجه نحو القبلة. عمل الصالحات في القرآن في

(١) التيجاني، عبد القادر حامد. الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم وبناء النظرية، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع ٦٦، ٢٠١١م. نقلاً عن الموقع الإلكتروني لهذه المجلة.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله التركي، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ج١، ص٩٧.

(٣) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. **تفسير البحر المحيط**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، ج١، ص١٩١.

حق الإنسان ينبغي أن يكون دائماً ما دامت حياته: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]. أما عناصر الصلاح؛ فمتمثلة في ثلاثة عناصر متساندة؛ أولها: عنصر معرفة الإنسان بالوجهة، والثاني: عنصر إضافة الإنسان الوجهة إلى العمل المخصوص بالمقدار المخصوص؛ في الزمن المخصوص بالمقدار المخصوص، والثالث: عنصر القبلة بما تعنيه من نية التوجه بالعبادة إلى الله، وكلها عناصر ترتبط بقدرة الإنسان الصالح على توجيه طاقة التساؤل وجهة تربط بين العمل والعبادة.

وعليه؛ فالإنسان الصالح في ضوء العناصر الثلاثة السابقة هو كما قال الأستاذ عبادي: "القادر بعلمه أو سؤال أهل الذكر إن كان لا يعلم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النحل: ٤٣] على أن يضيفه لحركته انطلاقاً من وعيه الدائم بقبلته وبوظيفته وبمصدر رشده... عن طريق استنطاق هذا المصدر بالترتيل قصد التلاوة". [يقصد المؤلف بالتلاوة اتباع آيات وبصائر الكتاب] وصناعة هذا الإنسان الصالح المصلح تكون بضبط تصورات الإنسان للوجود، وعلاقاته بالله والكون والإنسان والحياة الدنيا والآخرة".[1]

لا نكاد نعثر عند أصحاب هذه التعريفات ما يكفي من الوعي بأسباب

---

(١) عبادي، أحمد. **مفهوم الترتيل في القرآن الكريم، النظرية والمنهج**، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٦٢. وانظر أيضاً: ص٢٣١ و٢٣٤ و٢٤١-٢٤٤.

يراجع للتوسع دراستي لهذا الكتاب والموسومة بـ:

- الحسني، إسماعيل. قراءة في كتاب "مفهوم الترتيل في القرآن الكريم النظرية والمنهج"، **مجلة الترتيل**، العدد ١، ٢٠١٣م، ص٢٠٩.

تكون الإصلاح وببنية مظاهره، بكلمة أخرى إنها تعريفات يلامس كل واحد منها جانباً من الجوانب المفصلية للإصلاح الذي جاء به القرآن المجيد.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئن كانا من الفرائض الإسلامية التي يقوم عليها الإصلاح القرآني فإنهما لا يمثلان وحدهما جوهر الإصلاح القرآني وعماده.

والتوجه الذي ينبغي، ولئن كان أساسياً في إرادة الإصلاح جلباً له ودرء لما يناقضه ويخالفه، فإنه مفتقر إلى إبراز حقيقة وطبيعة هذا الذي ينبغي الاحتراز عنه أو الإتيان به.

ولئن أبرز القول بأن الإصلاح هو تمام الاستقامة على الدين الغاية النهائية للإصلاح القرآني فإنه يفتقر إلى العناصر الموصلة إليها.

والقول بالتسلسل الإصلاحي لئن أضفى على مفهوم الإصلاح منحى نسبياً فإنه غفل عن الطابع المركب والبنيوي لفعل الإصلاح ذاته.

والقول بأن الإصلاح، هو مهارة إنسانية لئن كشف مسؤولية الإنسان في حسن تنـزيل الإصلاح وتطبيقه فإنه لم يستحضر استحضاراً كاملاً مظاهره المتعددة وأسبابه المكونة.

وبالجملة لم يلتفت معظم أصحاب هذه التعريفات إلى أن للإصلاح في القرآن المجيد أسباب تنشئه وتكونه، فضلاً عن أنه مرتسم في مظاهر اعتقادية وفكرية وعملية، وعسى أن يكون الالتفات المتبصر إلى ذلك من أبرز ما يميز هذا الكتاب.

تعلمنا دروس المنهجية العلمية أنه لا سبيل لنا لبناء مفهوم دون الانطلاق من نظرية نقدية، أيّاً كان مجالها الموضوعي وأيّاً كان مستواها العلمي.[1] ولا شك أن الوصول إلى مرحلة صياغة المفاهيم القرآنية مؤشر كبير ودليل قوي على نضج المعرفة العلمية بالقرآن المجيد؛ لأن العقل العلمي لا يتعامل مع الموضوع العلمي بصفة عامة إلا عن طريق المفاهيم، كقوالب ذهنية بقدر ما تنطوي على معطيات متنوعة ومتعددة، فإنها تبرز درجة من سلم الشمول التي ينبغي أن يتصف بها علم العالم بالقرآن الكريم.

وعلى كل حال فقبل أن يكون الإصلاح مفهوماً علمياً، يبنيه الباحث ويشكله في سياق ما يبتكره من نظريات وما يتوصل إليه من قوانين وآراء، هو أولاً وقبل كل شيء مفهوم قرآني سيق في مقامات مختلفة وينطوي على

(١) إن العلم، في ضوء هذه النظرية، قدرة منهجية على إعمال مبادئه، وعلى تشغيل تقنياته قدرة يستطيع الباحث من خلالها أن يشتق من موضوعه نسقاً من المفاهيم فيوظفها مرة أخرى ليختبر، وباستمرار، نجاعتها في فهم موضوعه، وفي معالجة ما يطفح به من إشكالات، فقوام الفكر العلمي هو القدرة المنهجية على إعمال مبادئه وعلى تشغيل تقنياته؛ لأنه في ضوء هذه القدرة نبلور مفاهيمنا؛ مفاهيم تتحدد قيمتها الابتكارية في مدى انسجامها مع طبيعة الموضوع من جهة، وفي مدى مساهمتها في فهم ما تتناوله جوانبه المختلفة من قضايا وإشكالات من جهة ثانية. والمفاهيم بهذا المعنى ليست محنطة ولا مقدسة؛ لأننا إذا تبينا أن هذا المفهوم، أو ذاك، غير صالح وغير متطابق مع واقع المعرفة، فإن المطلوب دائماً وأبداً، هو البحث المستمر لعلنا نبدع مفهوماً آخر أكثر نجاعة، وليس حصر واقع المعرفة في المفهوم؛ أي مفهوم يراجع للتوسع في هذه النقطة دراستنا:

– الحسني، إسماعيل. الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٧، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص٦٨.

كنوز من المعاني التي لا يحيط بها إلا الله عز وجل، على الرغم من ذلك فإننا آثرنا أن نستعمله ونتدبره ونجهد أنفسنا من أجل وضعه في سياقين:

أولهما؛ سياق ما له من مظاهر يعرضها القرآن المجيد.

الثاني؛ سياق ما يطرحه هذا الكتاب المجيد من أسباب تكونه.

ومن ثم لا يقنعنا علمياً ونقدياً القول بأنه من غير الممكن، بل ربما من غير المفيد دراسة كل المواقع التي وردت فيها مادة فسد وصلح في القرآن الكريم.[1] وهذا القول محل نظر وتأمل؛ لأن استفراغ الباحث جهده العلمي في تتبع مادة صلح وفسد في القرآن المجيد من شأنه أن يكشف عناصر أساسية من مفهوم الإصلاح لا تمس أسبابه فحسب، وإنما تمس أيضاً مظاهره.

وهكذا تضمن هذا الكتاب، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، أربعة فصول: عالجنا عن طريق الفصل الأول الأسباب المُكونة للإصلاح، وحددنا فيما تبقى من فصول الكتاب مظاهره الاعتقادية والتفكيرية والعملية.

أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن ينفع بهذا العمل: مؤلفه، وقارئه، وكل من سعى، ويسعى إلى نشره بين العالمين.

والله الموفق للصواب

---

(١) ينظر قول الأستاذ التيجاني: "سيكون من غير الممكن، بل ربما من غير المرغوب فيه أن نتناول كل هذه المواقع".

– التيجاني، **الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم وبناء النظرية**، مرجع سابق، نقلاً عن الموقع الإلكتروني لهذه المجلة.

الفصل الأول:

الأسباب المكونة للإصلاح

لما كان لكل مسبب سبب ولكل نتيجة مقدمة، كان أيضاً للصلاح أو الفساد سبب معين أو مقدمة مخصوصة، فقبل أن نعرض لمظاهر الإصلاح أو الإفساد يتعين علينا تبين الكيفية التي طرح ويطرح من خلالها القرآن المجيد قضية الإصلاح، ويتمثل طريقنا إلى ذلك في التبصر بالأسباب المفضية لكل من الصلاح والفساد.

وهكذا أفضى استقراؤنا لكتاب الله تعالى في هذا المضمار إلى استنباط سببين رئيسين تنتظم في خيوطهما أسباب الصلاح والفساد:

يتمثل السبب الأول في التدافع المحقق للصلاح في مقابل الجمود والتناقض المفضيين إلى الفساد، ويتجسد السبب الثاني في التوسط المنتج للصلاح في مقابل الإسراف المنتج للفساد، وقد نص على ذلك بوضوح تام قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢].

أولاً: التدافع في مقابل الجمود

تتعدد الاستعمالات للغوية لمادة (د ف ع)، من ذلك الاستعمال الذي يفيد معنى الإزالة. يقال دفع إليه ودفعه ودفع عنه الأذى أو الشر؛ أي أزاله بقوة، ومن ذلك قولنا الدفع، يقال المدفع: مِذْنَبُ الدافعة؛ لأنها تُدفعُ فيه

إلى الدافعة الأخرى. ويقال: مدفع الوادي حيث يدفع السيل، وهو أسفله حيث يتفرق ماؤه. ومن ذلك المَدَفَّعُ: البعير المهان على أهله كلما قرب للحمل رد استحقاراً به. كما أن المَدَفَّعُ هو الرجل المحْقُور الذي لا يُضَيَّف إن استضافَ ولا يُجْدَى إن استَجدى، كما أنه الفقير الذليل؛ لأن كلاً يدفعه عن نفسه، وهو مجاز. وضيف مُدَفَّعٌ: يتدافعه الحي يحيله كل على الآخر. وشاة أو ناقة دافع ودافعة ومدفاع: تدفع اللبن على رأس ولدها لكثرته. ومن ذلك المدافعة: وهو الدفع يقال: دافع عنه ودفع، تقول: دفع الله عنك المكروه دفعاً، ودافع الله عنك السوء دفاعاً والاندفاع: المضي في الأمر كائناً ما كان. وفي الحديث: أنه دفع من عرفات؛ أي ابتدأ السير ودفع نفسه منها، أو دفع ناقته وحملها على السير. والمتدافع: المحْقُورُ المهان... كما أن المدافعة هي المزاحمةُ.(١)

كما نقرأ في القرآن الكريم الآيات الآتية:

- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٣٨].

---

(١) للتوسع، انظر:

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، (د. ت.)، ج٨، ص٨٧-٩٠.

- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].
- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦].
- ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].
- ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧ - ٨].
- ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١ - ٢].

١ - التدافع والبحث عن التوازن:

نلاحظ من استقرائنا لهذه الاستعمالات القرآنية لمادة د.ف.ع أنها سيقت في ثلاثة مقامات مقالية مفصلية:[1]

أولها: مقام ما ينتظر العصاة والكافرين يوم القيامة من عذاب ليس له من يدفعه أو يمنعه من المستحقين، كما في سورتي الطور والمعارج. أما

(١) سبق لنا من خلال دراسات سابقة أن حددنا المقام بانه نسق من العناصر اللغوية الصادرة عن الشارع والحالات الخارجية التي استعمل فيها الخطاب والتي تسهم بمجموعها في تحديد المعنى المقصود من الخطاب. وينقسم المقام إلى مقامين: مقام مقالي ومقام حالي. ينظر للتوسع فصل المقام من كتابي:

- الحسني، إسماعيل. **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م و٢٠٠٥م.

المؤمنون؛ فيدافع الله تعالىٰ ويدفع عنهم العذاب في الدنيا والآخرة كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٣٨].

الثاني: مقام المواجهة العسكرية التي سيق في إطارها دفاع الله بعض الناس ببعض والتي بها يستمر صلاح الأرض وينتفي من خلالها استمرار الهدم والتخريب، وهذا واضح في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١] وهو أوضح أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

الثالث: مقام المنازلة السلمية التي سيق في إطارها واجب الدفع بالتي هي أحسن مع العدو والتي يرجىٰ بها أن تتحول علاقته بنا من حال العداوة إلىٰ حال الموالاة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

يبدو، وانطلاقاً من هذه المقامات الثلاثة، أن المقصود بالتدافع في القرآن الكريم متمثل في كونه أداة من أدوات التوازن في الوجود الدنيوي الإنساني، ومن ثم لا يعني التدافع دائماً التصادم الذي يروم مصارعة المخالف وتخريب عمرانه واستئصاله من الوجود في الأرض، وإنما يعني أيضاً التنافس الذي يهدف إلىٰ التعايش الذي يروم صاحبه مساكنة

المخالف حتى ولو كان معادياً لنا. وهكذا يدعونا القرآن الكريم إلى أن ندفع بالخصلة الحسنة، ممثلة في الصفح والعفو، السيئة كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]"

التدافع، انطلاقاً من هذا المعنى التوازني، متسق مع أمرين؛ أولاً: متسق مع التعارف باعتباره مقصداً من المقاصد التي يستهدفها الشارع من خلف الناس مختلفين لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]. كما أن هذا المعنى متسق ثانياً: مع سنة من السنن القرآنية، وهي سنة الاختلاف لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

لا يخفى أن الإنسان اجتماعي بطبعه، كما قال علماء الاجتماع. ولابد أن يفرز اجتماعه بغيره من البشر خلافاً في الأهواء والرغبات المعنوية، وتعارضاً في المصالح والمنافع المادية، فالنفس البشرية مفطورة على غرائز متقابلة من الإيثار والأثرة، ومن الأنانية والتواضع، وغيرها من الغرائز المتضادة والمتناقضة، كما أن العقل الإنساني مفطور على قابلية بناء الإدراكات المتقابلة من العلم والجهل ومن الذكاء والغباء وغيرها من التعقلات المتناقضة.

كلها متناقضات تنتج تنافساً على نيل المطالب والرغائب، وتولد أيضاً تقارعاً في الآراء والأفكار والمذاهب، وتنتج ثالثاً تصارعاً في المصالح والأهواء. ومن ثم نفهم اختلاف الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ

لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨]. ومن مظاهر ومعطيات هذا الاختلاف قيام الخلق على الزوجية لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]. ومن أبسط دلالات الزوجية أن الزوج مغاير ومختلف ومخالف للآخر.

على سبيل المثال قد يكون بين الخلق الإنساني حب وود وتقدير، كما هو حال الرجل وزوجته، لكن يتولد عن تعايشهما نوع من التصارع والتدافع تفرضه تقلبات العواطف والأمزجة وتقتضيه أنواع الفهم ومستويات الإدراك، وتستلزمه تضارب المصالح والمنافع والرغبات، ولا تنحصر الطبيعة التصارعية والتافسية وعلى وجود الإنسان الفرد، وإنما تشمل هذه الطبيعة وجود الجماعات والمجتمعات والأمم، كلها تستنفر طاقاتها من أجل جلب أكبر قدر من المصالح ودرء أكبر قدر من المفاسد.

٢- مظاهر التدافع:

يستمد التدافع التوازني وجوده مما أوجد الله تعالى في الناس من قوة يدفعون بها بعضهم بعضاً. ولولا تكوين الله تعالى قوة الدفع، ولولا إيجاده سبحانه بواعثها لفسدت الأرض؛ أي لاختل نظام ما عليها من توازن الموجودات على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها، وتتنوع قوة الدفع عند الإنسان؛ فمنها ما هو من قبيل قوة الدفع الشهوانية من أجل بقائه وبقاء نوعه،[1] ومنها ما هو من قبيل قوة الدفع الغاضبة لرد المفرط في

(١) وقد اصطلح على تسمية هذه القوة الشهوانية باصطلاحات متعددة كالتناسل في الحيوان،=

طلب النافع لنفسه، وفي ذلك استبقاء بقية الأنواع؛ لأن الإنسان يذب عنها لما في بقائها من منافع له. ومنها ما هو من قبيل قوة الدفع العاقلة للدفاع عن آرائه وأفكاره وعقائده بالحجج والأدلة الملائمة، فلولا قوة الدفع الشهوانية والغاضبة والعاقلة التي أوجدها الله تعالىٰ في الموجودات لطغىٰ بعضها علىٰ بعض فتفسد الأرض؛ لذا كان لا بد من دفاع بعض الناس بعضاً، فيدافع المصلحون منهم المفسدين لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]. ويبدو من الآية الكريمة انطوائها علىٰ سبب أساسي يفسر الفساد أو الصلاح، فلولا التدافع بين الناس لحصل الفساد في الأرض، ولله دَرُّ الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما قال: "مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية".[1]

وعليه؛ فإن للتدافع، انطلاقاً من هذا المعنىٰ التوازني، مظهرين مفصلين؛ أولهما: سلمي. والثاني: عسكري.

= والبذر في النبات، والنضح في المعادن، والتولد في العناصر الكيماوية، كلها قوىٰ تطلب الملائم، وتدفع ما ينافيها، أو تطلب البقاء، وتنفي عن نفسها الهلاك كانسياق الوليد لالتهام الثدي، وانسياق أطفال الحيوان إلىٰ المراعي، وكتعريض اليد بين الهاجم وبين الوجه، وكتعريض البقرة رأسها بمجرد الشعور بما يهجم عليها من غير تأمل في تفوق قوة الهاجم علىٰ قوة المدافع.

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٠.

المظهر السلمي الأول: يأخذ المظهر السلمي للتدافع أشكالاً متعددة:

منها شكل التدافع الذاتي؛ لأن التدافع نعيشه دائماً من خلال ذواتنا، وذلك بمدافعة الخواظر الباطنية المذمومة والأمراض الجرثومية التي قد تهجم على أجسادنا وأعضائها المختلفة، ولهذا أمرنا بأمرين؛ أولهما: المحاسبة المستمرة للنفس حتى تكون نفساً لوامة لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، والثاني: الاستعاذة بالله من شر الوساوس لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ - ٦].

ومنها شكل التدافع الذي تطرحه التنشئة الاجتماعية، وذلك بما لها من أثر إصلاحي في تشكيل شخصية الإنسان الفرد وتكوين المجتمع والأمة، فالفرد الذي يُربى طوال حياته على التشبع بقيم التوحيد والتزكية والعمران ينشأ من الناحية الاجتماعية في تدافع وتشابك مع غيرها من القيم المغايرة الموروثة أو المستوردة، فالذي ينشأ في ضوء اتساق قوله مع فعله وظاهره مع باطنه وشعاراته مع ممارساته مفارق للذي مرد على التناقض ومرن على توسيع شقته كما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١]، قال الرازي: "ثبتوا واستمروا فيه... تمردوا في حرفة النفاق

فصاروا فيها أستاذين."[1]

فرق كبير بين من ينشأ في حياته الاجتماعية على الخضوع لمعاني الظلم والانحراف وبين من ينشأ في هذه الحياة على التشبع بمعاني العدل والاستقامة، فنحن هنا إزاء تدافع مجتمعي يديره أهل العدل مع من يمارسون الظلم ويمثلون الانحراف والضلال، تدافع سرعان ما ينتج من أشخاص وأشياء وسرعان ما يولد من أوضاع وأفكار.

لا يماثل حال من ينشأ في هيئته الاجتماعية على تغليب معاني العدل والاستقامة وغيرها من المعاني المصلحية حال آخر من ينشأ على تغليب معاني الجور والظلم والضلال، لا شك أن الأخير يتحول مع توالي الأيام إلى إنسان يعيش معاني العبودية،[2] فهو كالأبكم الذي لا يسمع شيئاً، ولا ينطق برأي ولا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضرر، فهذا النوع من البشر مماثل للصنم، ويتمثل وجه المماثلة في أن كلاً منهما عالة على غيرهما، فالصنم يحتاج أن يحمله صاحبه، ويضعه ويخدمه لأنه كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كَلّ على أوليائه لا يفهم ما يُقال له، ولا يقدر

(١) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر. **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، تقديم وتحقيق: هاني الحاج وعماد زكي البارودي، القاهرة: المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٣م، ج١٦، ص١٤٩.

(٢) قيل إن من المراد من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] أنه عام في كل عبد بهذه الصفة وفي كل حر بهذه الصفة. قال الرازي: "وهذا القول هو الأظهر؛ لأنه هو الموافق لما أراده الله تعالى في هذه الآية".

– الرازي، **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، مرجع سابق، ج٢٠، ص٦٩.

أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يُفْهَم عنه. عدم التدافع يفضي إلى التنشئة على معاني العبودية، وتفضي هذه التنشئة بدورها إلى مفاسد الظلم ومفاسد عدم القدرة على التصرف في ثمرات كسبنا المادية والمعنوية، ومن ثم لا يعادل من تمكن من طاقاته ومن ثمرات كسبه من عجز عن التصرف فيها، ولا يعادل من يسمع من لا يسمع، ولا يماثل من ينطق من لا ينطق، ولا يشبه المستقيم المنحرف، وهو ما نبه عليه القرآن المجيد في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥ - ٧٦].

إن الفرد الذي ينشأ في جو حرص الهيئة الاجتماعية على قيم النزاهة والكفاءة والاعتماد على الذات واحترام القوانين والمساواة وغيرها من القيم الإصلاحية القرآنية يعيش في تدافع مستمر مع قيم الغش التي يمكن أن ينهجها الوالد الغشاش، أو الأم الغشاشة، أو الأستاذ الغشاش أو غيرهم من قادة المجتمع الغشاشين من سياسيين وإداريين وغيرهم من المسؤولين الاجتماعيين، وفي إطار هذا التدافع يتربى الأفراد والمجتمعات؛ لأنها لا تتربى فحسب بمنطق الوعظ الأخلاقي على الرغم من أهميته وضرورته في المجتمع، نعم هو مهم، ولكنه محدود إذا لم ينشأ الجميع على قيم التأسي

والاقتداء، وإذا لم ينشأ الجميع على قيم الحرص على تطبيق القوانين.

ومن أشكال المظهر السلمي التنافس العملي والعلمي لتحقيق مطلوب ديني أو دنيوي لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وهذا حاصل ومتحقق ومطلوب مع النصير والخصم، ومع الولي والعدو؛ لأن تدافعنا مع المخالف لنا يكون أولاً وقبل كل شيء بالوسائل السلمية الحسنة التي لا تدمره ولا تخرب عمرانه؛ لأن سلوك هذه الصورة السلمية قد تدفع مخالفنا إلى الانتقال من حال التصارع والتنافر إلى حال التصالح والتآلف.

ومن أشكال التدافع السلمي الاختلافات الجماعية بين طوائف المجتمع ومكوناته، والاختلافات الفردية التي تحكمها الاعتبارات الشخصية بين شخص وآخر، أو بين فرد ومجموعة من الأفراد داخل هيئة اجتماعية معينة، ومنه ما هو بين فرد وسلطة.

حصل هذا لسحرة فرعون إذ حكى القرآن الكريم موقفهم المدافع عن إيمانهم بالله تعالى وعن صدق رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٠ - ٧٣].

كما حصل هذا أيضاً يوم جاء الرسول ﷺ عمّه أبو طالب يعرض عليه التنازل عن دعوته ورسالته في مقابل مغريات المال والملك والجاه، فكان موقفه الذي دافع من خلاله عن الحق بقوله النبوي المدوي في التاريخ: "يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري.. على أن أترك هذا الأمر.. ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه."

ومن أشكال التدافع السلمي ما يتصور في صورة التدافع العلمي الذي ينبري من خلاله حملة العلم وأولو الفكر والرأي لدحض الباطل، وإزالة شبه أهله، فيثمر كل هذا نشاطاً عقلياً وحركة علمية بالمناظرة والجدل والاجتهاد. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]. يضفي التدافع العلمي والفكري طابع الحيوية على حياة المجتمع، فينقذه من الجمود الذي يعكف فيه الناس على ما تركه الأقدمون على الرغم من اضمحلاله وعدم صلاحيته. وفي طليعة ما يكون الجمود عليه العقائد الشركية التي تكون سبباً أساسياً من أسباب الفساد، والشرك كما يكون في الاعتقاد قد يكون في القول تارة، ويكون في العمل تارة أخرى، وفي هذا المضمار قال الرازي: "اعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك. لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً، وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله، بل يكون للنفس، فالفاسق مشرك بالله بفعله."[1]

(١) الرازي، **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، مرجع سابق، ج٢٥، ص١١.

وهكذا إن التصميم في الإسلام "على عدم تلقي الناسخ وعلى ملازمة المنسوخ هو عمل بما لم يبق فيه صلاح للبشر، فيصير ذلك فساداً في الأرض لأنه كمداواة المريض بدواء كان وصف له في حالة تبدلت من أحوال مرضه حتى أتى دين الإسلام عاماً دائماً لأنه صالح للكل."[1]

المظهر الثاني: مظهر عسكري فيه من التصادم بقدر ما فيه من التصارع، وفيه من التعارك بقدر ما فيه التناحر الذي يفضي إلى الاستئصال الوجودي.[2] ويتخذ التدافع من خلال هذا المظهر طابع العنف العسكري فيكون تصارعاً وتغالباً يروم محاولة غلبة بعضهم بعضاً الآخر كما في حال الحروب التي يتدافع الناس فيها تدافعاً عسكرياً، إذ عن طريق الحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وعن طريق الحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل.

إن التدافع، انطلاقاً من هذه الصورة، سبب أساسي للحفاظ على مصالح الدين والنفس والمال والعرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]. ومن أمثلة

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٣٧٢.

(٢) وقدياً دعا نوح على قومه عندما تيقن من عدم صلاحهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

ذلك ما حصل في معركة بدر، وفي واقعة الأحزاب ضد اليهود والمشركين، وفي اليرموك ضد الصليبية، وفي القادسية ضد المجوسية، وفي حطين أمام الصليبيين، وفي عين جالوت أمام غزو المغول الذين اجتاحوا العراق وسوريا وقتلوا في بغداد وحولها ما يقرب من مليون مسلم. فالتدافع العسكري هنا هو طريق الصلاح ممثلاً في النصر الذي يؤكده القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والحاصل من أشكال التدافع السلمي والعسكري أن النوع البشري متدافع من أجل تحقيق مقاصده: يستوي في ذلك المؤمنون وغير المؤمنين لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. أما أهل الباطل؛ فهم متناصرون عليه، ينافحون عنه، لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] ولقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] ولقوله تعالىٰ أيضاً: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وبالجملة بقدر ما يحمل التدافع معاني التنافس ينطوي علىٰ معاني التصارع والتناحر والتثالب، وبقدر ما يكتنز معاني التحرك يدل أيضاً علىٰ

معاني التزاحم والتعارض. وعليه ففيه من معاني التنافس التي يهيمن عليها الرد بالحجة البالغة بقدر ما فيه من معاني التصادم التي يهيمن عليها الرد يالقوة العسكرية التي نحمي من خلالها عقائدنا وقيمنا ومصالحنا، ومن ثم حق للراغب الأصفهاني إذا قال: " الدفع... إذا عدي بـ"عن" اقتضىٰ معنىٰ الحماية نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]."[١]

وعلىٰ كل حال ينبغي أن تؤسس مظاهر التدافع علىٰ الحق، وليس علىٰ اتباع الأهواء المتضاربة التي تهوي بأصحابها في درك الأطماع الذاتية والأنانيات السلبية.[٢] قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ أي: "لو عمل الرب تعالىٰ ذكره بما يهوىٰ هؤلاء المشركون، وأجرىٰ التدبير علىٰ مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحق الذي هم له كارهون، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور، والصحيح من التدبير الفاسد، فلو كانت الأمور جارية علىٰ مشيئتهم وأهوائهم لم تقر السماوات والأرض ومن فيهن من خلق الله لأن ذلك قام بالحق،"[٣] من هنا وجب مدافعة الأهواء بالحقائق كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٣١٦.

(٢) النجاة في اليوم الآخر متمثلة في ترك الهوىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

(٣) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج١٧، ص٧٧.

إن الهوىٰ سبب يؤدي إلىٰ مفاسد متعددة: تارة هي مفاسد في الاعتقاد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥ - ١٦]، بل لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا؛ لأن لكل إله هوىٰ يناقض هوىٰ الآخر فيحصل الخراب والفساد، وهذا واضح في قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وتارة أخرىٰ هي مفاسد في السلوك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، وقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧] وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

٣- التدافع وأدواته:

إننا مطالبون بتحمل مسؤوليتنا في إعمال التدافع سواء في صورته السلمية أم في صورته العسكرية، نأخذ بأدواته في السلم لقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، كما نأخذ بها إذا وقع علينا ظلم من غيرنا لقوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] ولقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦]. ولقوله:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. يتجسد التدافع من الناحية الفكرية في جملة من الأدوات، لعل أعظمها أداتين؛ الأولى: نقد الجمود، والثانية: نقد التناقض.

أ- التدافع وأداة نقد الجمود:

إن أكبر مظهر للجمود هو عدم القدرة على تحمل تبعات المساءلة والمحاسبة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦].(١) والحق أن في الآية فكراً نقدياً يشير إلى تهرب هذا الصنف من البشر من المحاسبة والمراجعة والمساءلة، فإذا انتقد سرعان ما يغضب وينتصر لأنانيته السلبية، كما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ

---

(١) ثلاثة احتمالات في الآية:

الاحتمال الأول: أن يكون الخطاب فيهاً متوجهاً إلى النبي ﷺ فيكون المقصود هم المنافقون، ومعظمهم وقتئذ من اليهود، وفيهم من المشركين من أهل يثرب.

الاحتمال الثاني: أن يكون الخطاب متوجهاً فيها إلى شخص معين، كالأقنس بن شريف الثقفي، وكان يظهر المودة للنبي ﷺ، ويظهر الإسلام، ولما انقضت وقعة بدر قيل: إنه حرق زرعاً للمسلمين وقتل حميراً لهم فنزلت فيه هذه الآية، كما نزلت فيه آيات أخرى، منها: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١١].

الاحتمال الثالث: أن يكون الخطاب فيها لغير معين حتى يعم التحذير كل مخاطب من أن تروج عليه حيل النفاق وأهله. انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٠.

لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦].

قال السموأل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فعوض أن تعترف هذه الشخصية بالحق، ممثلاً في اتساع الشقة والمسافة بين ما ترفعه من شعارات إصلاحية وما تمارسه من فساد، تستعز بالإثم، وفي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم، واللدد في الخصومة، والفجور في الإفساد في مواجهة هذا كله يجيب السياق القرآني صاحب هذه الشخصية بقوله تعالىٰ: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦]. ما أبعد هذا النوع من البشر عن أولئك الذين وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٨]، والمقصود بالاستماع هنا الإدراك والاستيعاب؛ لأن كل موضع في القرآن الكريم أثبت الله فيه السمع للمؤمنين أو نفاه عن الكافرين فالقصد به كما قال الراغب الأصفهاني "تصور المعنىٰ والتفكر فيه."[1]

لقد أدرك بعض المفسرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ المقصد الإصلاحي الثاوي خلف الاستماع والاتباع.[2] لكن الملاحظ أن معظمهم حصروا ذلك المقصد

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مرجع سابق، ص٤٢٦.

(٢) قال الألوسي: "مدح لهم بأنهم نقاد في الدين." وقال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أثنىٰ عليهم الله بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدىٰ والضلال، والحكمة والأوهام، نظار في الأدلة الحقيقية، نفاد للأدلة السفسطائية." انظر: =

الإصلاحي في وظيفة نقدية واحدة يعبر عنها المعنى اللغوي لكلمة النقد، أعني معنى القدرة على التمييز بين الأشياء والأمور المختلفة، كالتمييز بين الدراهم الزائفة والدراهم الصحيحة، وكالتمييز بين الخبيث والطيب، وبين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، والراجح والمرجوح.[1]

والحق أن قدرة المؤمنين على الاستماع وعلى الاتباع لا تتجسد فحسب في وظيفة التمييز العقلي بكل ما يعنيه من سلامة الفهم ودقة الاستنباط، وإنما تشمل وظائف مختلفة. دليل ذلك اسم التفضيل في الآية، فليس المقصود باسم التفضيل تفاوت الموصوف به في الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وإنما المقصود من اسم التفضيل "أحسنه" هو قوة الوصف الحسن، وقوة الوصف الحسن لا تتجسد في وظيفة نقدية واحدة، وإنما تشمل وظائف نقدية متعددة. الشاهد على ذلك أن النقد تارة يدل على الفكر المتفتح، والمؤمنون متفتحون لأنهم يستمعون كل الأقوال، وتارة أخرى يدل النقد على الفكر الخير

= – الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٥٢.

– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٣٦٦.

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، مادة: نقد. وانظر أيضاً:

– الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٥٢–٢٥٣.

– الرازي، **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، مرجع سابق، ج٢٦، ص٢٣٨.

والحسن، وأحسن الفكر هو الذي يروم صاحبه الانتقاد، ويبغي الاعتراض، ويتطلع إلى المساءلة، ولا يسلم بأي أمر دون تمحيص في قيمته المعرفية أو المنهجية أو التاريخية أو الفنية... وكلها وظائف نقدية ما كان للمؤمنين أن يمارسوها دون استماعهم للأقوال كلها، وما كان لهم أن يؤدونها دون اختيارهم لأحسنها واتباعهم لأفضلها.

والظاهر من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٨] انطواؤه على قيمة التفتح؛ لأن المؤمنين قادرون على الاستماع للأقوال كلها. قيل: "يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن". وقيل "يستمعون القول ممن كان."[١] وقيل: "هو عام في جميع الأقوال."[٢]

وهكذا فالمؤمنون، بحسب الآية، أناس يقتدرون على الاستماع لكل قول سواء أكان هذا القول هو الوحي من الكتاب والسنة الصحيحة أم كان هذا القول غيرهما مما ينتحله الناس من مذاهب وما ينتجونه من آراء

---

(١) ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: المجلس العلمي بتارودانت، الرباط: وزارة الأوقاف، (د. ت.)، ج١٤، ص٧٣. وانظر أيضاً:

- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، **تفسير الخازن «لباب التأويل في معاني التنزيل»**، تحقيق: عبد السلام شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ج٤ ص ٥٤.

- الرازي، **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، مرجع سابق، ج٢٦، ص٣٣٩.

- الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٢٥٣.

(٢) أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٢١.

واجتهادات. وتبعاً لهذه القدرة الكبيرة فهم يستمعون القول كله، سواء ما يدعو إلى الحق والخير والمصلحة، أم ما يدعو إلى الباطل والشر والمفسدة، لا مجال للانغلاق، بل المطلوب منهم أن يقدموا، وباستمرار، أنموذجاً واقعياً في الانفتاح الواعي، ودليل ذلك في الآية أن التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هو تعريف للجنس، أعني كل قول أيّاً كان مصدره ومرجعه، وأيّاً كان مجاله ومستواه.

وقيل أيضاً في تفسير الآية: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها؛ لأن في القرآن الأحسن والحسن، كما رغب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن؛[1] فالمؤمنون يتبعون أحسن الأقوال، والاتباع هنا اختيار؛ لأنه دائر مع الدليل والبرهان إذ هو متابعة مؤسسة ومواكبة واعية لما عند الغير من مذاهب وآراء وأفكار، وإذا تجرد الاتباع عن الدليل والبرهان لم يكن اختياراً بل كان جموداً على التقليد، ولا خير ينطوي عليه الجمود على التقليد، والطريف في لغتنا العربية أن لفظ الاختيار يتضمن قيمة؛ لأنه مشتق من الخير والتخير والخيرة، والاختيار هو السعي إلى الأحسن؛ أي إلى ما هو خير من خيره وإيثاره عليه لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٨].

لا بد من استبقاء التدافع النقدي حياً في حياة المجتمع لقوله تعالى:

---

(١) من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] فالانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر أحسن.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]. فالتدافع النقدي بما يعنيه من استنكار للمنكر، ومن مساءلة، ومن محاسبة، ضروري لمواجهة أنواع وأشكال الفساد، فالله تعالىٰ لا يأخذ أهل القرىٰ بظلمهم وفسادهم إذا كان أهلها يتحملون مسؤولية مقاومة أهله وانتقاد القائمين عليه. قال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون؛ فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد أو فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال، فأصحاب الدعوة إلىٰ ربوبية الله وحده وتطهير الأرض من الفساد التي يصيبها بالدينونة لغيره هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره."[1]

ب- التدافع وأداة نقد التناقض:

يمكننا التدافع النقدي من تبين أن نجاعة الإصلاح ومشروعيته تستمد أولاً وقبل كل شيء من نوعية شخصية الداعي إليه ومن مدىٰ

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط٣٠، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، مجلد٤، ج١٢، ص١٩٣٣.

التزام مدعيه، ليس المقصود، في ضوء هذا الفكر مجرد تحقيق أي تميز وأي فرادة وأي استقلالية؛ لأن إرادة الفرادة ليست بشيء إذا لم تقترن بالعمل الذي يعكس ماهية الدعوة ويصور بهذه الدرجة أو تلك حقيقة الادعاء. ولهذا نبه نبي الله شعيب على أن مقصد دعوته وادعاؤه لا يتجسد في إرادة مجرد المخالفة إلى ما نهاهم عنه لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

لا يراعي الجبابرة والطغاة اتساق قولهم مع عملهم، ومن ثم يسقطون في شرك التناقض الكبير بين ما يأمرون الناس به من بر وبين ما عليه واقعهم وما تدل عليه ممارساتهم من فجور لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]. ولهذا لا يتحدد المطلوب في مطابقة القول للعمل مطابقة تامة، وإنما المطلوب هو أن يبلغ الداعي إلى الإصلاح ومدعيه مبلغ الاستطاعة في تحقيق التناغم بين قوله وفعله لقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

المهم في هذا الاتساق بين واقع الدعوة وبين حقيقتها العملية هو صدق إرادة الإصلاح. فعلى سبيل المثال مهما كانت إجراءات ومجهودات الحكمين في تقريب شقة الخلافات عامة، والخلافات بين الزوجين خاصة، فإن نجاعة تلك الإجراءات وفعالية تلك المجهودات مرتبطة بمدى وجود الإرادة الصادقة للإصلاح من الزوجين والحكمين، هذا هو الدرس القرآني المستنبط من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ

أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].[١]

إن القول السديد طريق من طرق إصلاح العمل لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]. والقول السديد قول علمي لا يشمل فحسب القرآن وما صدر عن الرسول الكريم محمد ﷺ من سنة وسيرة، وإنما يشمل كل قول يراعي ما عليه واقع المعرفة العلمية بحسب ما بلغه سقف المعرفة الإنسانية، لا يصلح القول السديد أو العلمي عمل الإنسان الفرد وحده، وإنما يصلح أيضاً عمل المجتمع والأمة. ضميرا جمع المخاطب لما عادا علىٰ الذين آمنوا فقد كانا عامين لكل المؤمنين في سائر الأزمان، ومن ثم نفهم مغزىٰ تنبيه الرسول الكريم محمد ﷺ علىٰ واجب الاحتراز والتثبت في أقوالنا من مثل قوله ﷺ: "رحم الله من قال خيراً، أو صمت."[٢]

قد يكون المرء صالحاً باعتبار أقواله التي تعجبنا وباعتبار حججه التي يبرع في صياغتها ولحنها، ولكنه يكون فاسداً إذا اعتبرنا ممارساته لقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥].

---

(١) يستدل بالآية علىٰ جواز التحكيم في الحقوق، ومنها حقوق الزوجين.

(٢) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة**، تحقيق: محمد عثمان الخشت، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، حديث رقم: ٥١٥.

يختص فريق من الناس[1] بالتناقض بين أقوالهم وممارساتهم الفاسدة، تعجبنا أقوالهم؛ لأن صورتها ومبانيها تدل على الإيمان والنصح للمسلمين، فهي صورة بيانية فيها من الخير بقدر ما فيها من الحب، وفيها من الإخلاص بقدر ما فيها من سحر البيان حتى كان صاحبها كما في الآية الكريمة ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. ومن ثم نرى صورة هذه الشخصية متماسكة في منطقها البياني ومنسجمة في عناصرها الشكلية ومتناسبة في حججها العقلية ومتناغمة في مبانيها اللفظية، لكن لئن أعجبتنا هذه الصورة القولية أو اللفظية أو الشكلية فإن صورتها الواقعية تدل على الفساد والإفساد في العمران البشري، إذ فيها من الشر بقدر ما فيها من الكراهية، وفيها من الخيانة بقدر ما فيها من الأنانية، ففي هذه الصورة الواقعية من هلاك الحرث بزرعه ونباته وثماره، بقدر ما فيها من هلاك النسل بذريته، وقد خص الله تعالى بالذكر الحرث والنسل في هذه الآية لأنهما كما قال أبو حيان: "أعظم ما يحتاج إليه في عمارة الدنيا، فكان إفسادهما غاية الإفساد."[2]

---

(١) لفظ "من" هنا للتبعيض، كما هي صالحة للصدق على فريق من الناس، هي أيضاً صالحة للصدق على شخص معين.

(٢) أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٢، ص١١٨.

يراجع للتوسع في هذه الصورة ما كتبه الأستاذ زياد خليل الدغامين. انظر:

- الدغامين، زياد خليل. إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٤، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص٥٥-٥٦.

وانطلاقاً من كل هذه الآفات انطوت هذه الصورة على المقت الكبير الذي لا يتناقض فحسب مع مكارم الأخلاق، وإنما يتناقض أيضاً مع مقتضيات العقل النقدي لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣] ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

وعلى كل حال إن شقة التناقض واسعة في صورة هذه الشخصية، ففرق شاسع بين ما تقوله أو ما ترفعه من شعارات براقة ولافتات خداعة وبين ما هو عليه واقع أعمالها في الأرض وما يدل عليه من فساد في الأرض وإهلاك للحرث والنسل، فهي شخصية متناقضة: من جهة هي ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾؛ أي شديدة الخصومة، ألد صفة مشبهة، وهي من جهة ثانية مفتقرة إلى الشاهد والدليل الواقعي لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]. الحرث هنا هو الزرع والنسل، والنسل: هو أفضال الحيوان مشتق من نسل الصوف نسولاً إذا سقط وانفصل، وقد كنّى الله تعالى بالحرث والنسل؛ لأنهما قوام الحياة العربية وقت النزول. فليس المراد، كما قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خصوص هذين، بل المراد ضياع ما به قوام الناس، وهذا جرى مجرى المثل."[1]

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٠.

ثانياً: التوسط في مقابل التطرف

١ - التطرف وأنواعه:

من التطرف الإسراف في النفقات، وهو تطرف منهي. والدليل على كون الإسراف سبباً من أسباب الفساد أن الله تعالى وصف المسرفين بأنهم مفسدون في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢]. ولعل أبرز أنواع الإسراف الإسراف في النفقات لقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١]. والإسراف، تارة عرفه الإمام ابن عاشور: هو "تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشيء المشتهى،"[١] وتارة أخرى عرفه بأنه "تجاوز الحد المتعارف عليه في الشيء."[٢] وأقوى صور الإسراف تبذير الأموال والطاقات في وجوه الفساد والمحرمات وفي غير وجوه البر والصلاح لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧]، ولقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن التطرف العلو المقترن بالطغيان، وهو شدة العصيان والظلم[٣]

---

(١) المرجع السابق، ج٨، ص١٢٣.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٨، ص٩٥.

(٣) قد يكون سبب الطغيان وصول صاحبه درجة من درجات الترف. فالمترف لغة هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش فطغى. ومن ثم أنذر الله تعالى المترفين بالدمار لقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: ١٦].

لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ١١ - ١٢]. ومعنى هذا أن الطغيان يجرئ صاحبه على دحض حقوق الناس عامة، وعلى الهجوم على المستضعفين منهم خاصة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٣]. وهذا فساد عظيم تختل معه القوانين والأنظمة، ويثير الحفائظ والضغائن.

يظهر الطغيان من خلال الوقت الراهن في عدم فعالية المؤسسات التي من المفروض أن تقوم بمهمة الرقابة على حقوق المجتمع، ويقع على عاتق المسؤولين فيها توسيع مجالات الحرية والتمكين لما يسمى بالشفافية وما تستلزمه من تكافؤ الفرص بين الجميع، إن أكبر ما يسفر عنه الطغيان من فساد أن من وقع عليهم الطغيان سرعان ما يضمرون السوء للطاغين فتنطوي نفوسهم على كراهة الطغاة، ففي ظل هذا الفساد الناشئ عن الطغيان يكون رجال الدولة، متوجسين من الناس منهم فيظنون بهم السوء في كل حال، ويحذرونهم، ومن ثم تتوزع قوة الأمة على أفرادها عوض أن تتحد على أعدائها فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل، وذلك يفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيان سبباً لكثرة الفساد.[1]

ومن التطرف انعدام التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، فإذا كانت مصلحة الفرد متمثلة في كسب الأموال وفي الاغتناء عن طريق العمل والسعي إلى تنمية ثرواته المشروعة، فإن مصلحة المجتمع تتمثل في

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣٠، ص٣٢١.

الرقابة على طرق تحصيل الأموال ومسالك إنفاقها وسبل الاستمتاع بها. والإسراف هنا متمثل في اختلال التوازن بينهما، والمطلوب أن لا تطغى مصلحة المجتمع فتكبل الفرد وتعوقه عن التمتع بثمرات كسبه، كما إن المطلوب أن لا تطغى مصلحة الفرد فتضيع حقوق المجتمع. قال الأستاذ سيد قطب: "الإسلام يعترف بالملكية الفردية ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال... ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت نفسه يفرض منهجاً معيناً للتصرف في الملكية الفردية... هو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال."[1]

ومن التطرف المبالغة في العقاب، ولا يخفى أن معاقبة المسيء على ما ارتكبه، عمل صالح ونافع، نعم لا شك في ذلك، ولكن إذا تجاوزت العقوبة مرتبتها ودرجتها المناسبة للفعل الفاسد المرتكب تحولت العقوبة إلى فعل فاسد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٣٠].[2] ولعمري إن البطش، باعتباره تطرفاً، من أخطر أنواع الظلم التي تؤذن بخراب العمران، وهو ما أشار إليه العلامة ابن خلدون في قوله:

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٢٠، ص٢٧١٢.

(٢) قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "شأن العقاب أن يكون له حد مناسب للذنب المعاقب عليه بلا إفراط ولا تفريط. فالإفراط في البطش استخفاف بحقوق الخلق". انظر:
- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٩، ص١٦٩.

"واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشرع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال."[1]

إن العمران البشري، ولو كان من قبيل بناء الأبراج العالية وصناعة الصواريخ العابرة والطائرات النفاثة وتصميم المدن الضخمة، عمران ناقص ومهدد بالاندثار إذا لم يكن مبنياً على الأمن الروحي والاجتماعي، ولهذا نفهم المغزى الإصلاحي من دعوة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦].[2]

ومن التطرف الاحتفاء بالبناء العمراني في مظاهره المادية المختلفة والغفلة عن البناء الروحي للإنسان وما يحمله عليه هذا البناء من تعارف بين البشر ومن تعاون بينهم على البر والتقوى. يعرض علينا القرآن المجيد

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون**، بيروت: دار الجيل العربي، (د. ت.)، ص٣١٨-٣١٩.

(٢) قال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كانت دعوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذه من جوامع النبوة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير، والإقبال على ما ينفع والثروة، فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول، وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة." انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٧١٥.

مشاهد وتجارب من تاريخ البشرية اهتم أصحابها بالوجه المادي للعمران البشري ولم يهتموا اهتماماً بالوجه الروحي للوجود الإنساني، وهذا واضح فيما يقصه القرآن الكريم عن هود وعاد وثمود وفرعون وأصحاب الجنة وصاحب الجنتين.

لقد اهتم قوم هود بعمارة الأرض حتى انحصرت همتهم في بناء الأعلام وتشييد المنارات التي يهتدي بها المسافر والمرتحل في طريقه، كما بنوا القصور على أشراف من الأرض والمصانع للمياه فحفظوها في صهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء فيشرب منها المسافرون، وينتفع بها المقيمون والحاضرون سواء في زمن القحط أم في وقت قلة الغيث.

والحق أنها من جنس الأعمال الدنيوية التي ينتفع بها الناس في وجودهم ويتيسر بها معاشهم. كل ذلك نافع للناس؛ لأن بها حفظهم من الهلاك ومن العطش، ومن ثم كانت هذه الأعمال، ومن زاوية هذا الاعتبار، أعمالاً جديرة بالثناء والإعجاب. لكن لو أهمل فيها رضى الله وتمحضت لمجرد الرياء والطغيان ونسيان اليوم الآخر فإنها تصبح أعمالاً فاقدة للجدوى وللفائدة، وذلك هو ما يشير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

إن أعمال هؤلاء الأقوام أعمال مهمة في تسهيل معايش الناس وتيسير سبل الإفادة من المباهج الدنيوية، نعم لا شك في ذلك، ولكن إذا أدت إلى

الطغيان سلبت منها روح المقاصد الحسنة. وهذا واضح فيما يقصه القرآن المجيد عن عاد في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، وهو أوضح فيما يقصه عن فرعون لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

وهكذا يجب أن نميز في الأعمال العمرانية المادية بين اعتبارين:

اعتبار استحضار رضىٰ الله تعالىٰ بنفع الناس وتيسير سبل معايشهم ومكاسبهم، فتستحق من زاوية هذا الاعتبار الثناء عاجلاً والثواب آجلاً.

واعتبار إهمال رضىٰ الله تعالىٰ في نفع الناس أو الإضرار بهم فتكون وسائل للرياء والغفلة عن اليوم الآخر، فضلاً عن الغرور بالعظمة الدنيوية المحضة، ومن ثم صار وجود هذه الأعمال العمرانية المادية، شبيهاً بوجود العبث لقوله تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩].

قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأعمال إذا خلت عن مراعاة المقاصد التي ترضي الله تعالىٰ اختلفت مشارب عامليها طرائق قدداً علىٰ اختلاف الهمم واجتلاب المصالح الخاصة، فلذلك أنكرها عليهم رسولهم الواعظ علىٰ سنة المواعظ فإنها تبنىٰ علىٰ مراعاة ما في الأعمال من

الضر الراجح على النفع مرغوباً للناس، فإن باعث الرغبة المنبث في الناس مغن عن ترغيبهم فيه، وتصدي الواعظ لذلك فضول وخروج عن المقصد بتحذيرهم أو تحريضهم فيما عدا ذلك."[1]

٢- التوسط:

وهكذا عوض التطرف لا بد من التوسط لأن التطرف انحراف عن الاستقامة، والانحراف لا يتجه دائماً وجهة التشدد أو الغلو، وإنما يتجه أيضاً وجهة الانحلال أو الميوعة. والمطلوب هو الرد المناسب لا إلى الجهة المقابلة، وإنما المطلوب دائماً هو الرد المناسب إلى الوسط الملائم.[2] عوض الإسراف لا بد من الركون إلى التوسط الذي لا ميل معه لا إلى التشدد الذي لا يقدر عليه عامة الناس وسوادهم الأعظم، ولا ميل معه إلى الانحلال الذي يرفع عنهم سلطان المسؤولية.

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٩، ص١٦٦.

(٢) وهو ما بينه الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بياناً عميقاً في قوله: "إذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فدلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد -وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف -وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، رأيت التوسط لائحاً ومسلك الاعتدال واضحاً". انظر:

- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، (د. ت)، ج٢، ص١٦٧-١٦٨.

لا نفهم التوسط بميزان حسابي نظري مجرد حتى نقول دائماً إن الإصلاح يوجد مثلاً في التوسط بين الإفراط والتفريط،[1] وإنما نفهمه بميزان تقويمي عملي يعطي الأولوية لأحوال الناس ويراعي ما عليه واقعهم، فحال صاحب هذا الفهم مماثل لحال الطبيب الماهر مع المريض، فلما كان خبيراً بفطرته كان علياً بما يصلح له في عاجله وآجله، فالطبيب الحاذق هو الذي يحمل مريضه على ما فيه علاجه وصحته، لا بحسب معارفه المجردة، وإنما أيضاً بحسب ما يطرحه حال المريض في قوة ونوع مرضه، وفي ما تفرزه عاداته من معطيات مختلفة.

ليس الفيصل في العلاج مجرد محفوظات الطبيب، أو مجرد معلوماته عن الأدوية التي يحفظها عن ظهر قلب، وإنما الفيصل أمران؛ أولهما: تشخيصه العلمي والدقيق لحالة مرضه، واهتداؤه إلى مقادير الأدوية وكيفيات تناولها ونسبها وأوقاتها؛ وبناء على هذا العمل العلمي فإن طريق

---

(١) وذلك تبعاً للقول اليوناني أن الإنسان معرض للإفراط والتفريط في استعمال قواه العقلية والشهوانية والغضبية، ومن ثم كان مناط الفضائل هو التوسط. وهكذا كان الخلق الحسن والصالح موجود بين طرفي الإفراط والتفريط. من ذلك الشجاعة فهي خلق وسط بين التهور وبين الجبن، والكرم أيضاً خلق وسط بين البخل وبين التبذير، والعفة أيضاً وسط بين الخلاعة والفجور وبين الخمود والسكون يراجع أصول تاريخ القانون لعمر ممدوح مصطفى ص٨٥. سبق للأستاذ عباس محمود العقاد أن اعترض على هذا الفهم، إذ لاحظ أن صاحبه لا يعطي أي تقدير للعوامل النفسية وللقيم الروحية في الأخلاق. انظر:

- العقاد، عباس محمود. **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، القاهرة: المؤتمر الإسلامي، ط١، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ص٢٨٣.

التوسط متثمل في سبر أحوال الإنسان وقياسها دائماً بميزان القرآن الكريم ومقاصده، فلا يسبح التوسط القرآني في بحور المطلقات المجردة، وإنما نسعى إلى تطبيقه ونحن على بال بما يحتف بسلوك الناس من ظروف؛ تارة هي ظروف تستلزم الأخذ بما يناسب من "تشديد" وتارة أخرى قد تستلزم الأخذ بما يناسب من "تخفيف".

إن التوسط نتيجة من نتائج تحليلنا لواقع الناس، ليس فحسب انطلاقاً مما ينبغي أن يكون عليه، وإنما أيضاً بحسب ما هو عليه واقعه وحاله، ولهذا لا بد من المكابدة واستفراغ الجهد العلمي حتى ندرك التوسط في هذه المسألة أو تلك من المسائل التي تعترض حياتنا، وبتلك المكابدة وبهذا الجهد تستحق الأمة الإسلامية وصف التوسط قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالآية تذكر التوسط باعتباره فضيلة من الفضائل التي ينبغي أن تكون الأمة الإسلامية متصفة بها، وبها تكون مؤهلة لقيادة البشرية وهداية الأمم الأخرى إلى الخير، فعلى قدر اتصاف هذه الأمة بهذه الفضيلة تستحق أولاً: ثناء الله تعالى، وتستحق ثانياً: أن تقود من الناحية الفعلية والواقعية هداية الأمم الأخرى للخير في هذا العالم الدنيوي الذي نعيشه، فقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ هو بمثابة العلة أو المقصد؛ أي ما كان لكم أن تكونوا شهداء على الناس لو لم تكونوا مؤهلين لهذه الشهادة ولهذه القيادة من خلال العمل وتحمل مسؤوليات التكليف بأحكام الإسلام المختلفة.

الوسط، باعتباره سبباً ينتج الصلاح والإصلاح، ليس مجرد فضيلة أخلاقية؛ لأنه سلوك منهجي يؤهل الأمة الإسلامية؛ كي تتبوأ الشهادة على الناس والأستاذية عليهم، فالوسط في القرآن المجيد[1] يعني الامتياز والتميز الذي لا يحصل بمجرد الانتساب التاريخي أو الجنسي أو العائلي للأمة الإسلامية، وإنما يحصل بالمكابدة وبالعلم وبالقدرة وبالاستقامة على ما أتى به الدين الإسلامي.[2] وعلى أساس كل تلك الأوصاف

---

(١) ورد التوسط أيضاً في سورة القلم، الآية ٢٨ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: ٢٨]؛ أي أعقلهم وأخيرهم وأقربهم إلى السداد والخير والصواب. وورد في سورة العاديات، قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ١ - ٦]؛ أي كن وسط الجمع من الناس كثمرة ونتيجة كان لأجلها العدو والإيراء والإغارة. وفي السنة النبوية أيضاً، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيقال لنوح من يشهد لكم؟ فيقول: محمد وأمته، فذلك قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: الوسط العدل". انظر:

- الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ج١٧، ص٣٨٣، حديث رقم: ١١٢٨٣.

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: ١] إلى آخر السورة، حديث رقم: ٣٣٣٩.

(٢) قائد الجيش عند العرب يكون في الوسط؛ أي أن له صفات أخلاقية وعلمية أهلته كي يكون في المركز الممتاز؛ أي في القلب، وهو الوسط بين الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة، وبذلك يصبح القائد هو المحمي الذي تقوم رحى الحرب عليه ومن أجله، بكلام آخر لا تحصل القيادة والزعامة على البشرية بمجرد الانتساب الجغرافي أو التاريخي أو القبلي أو =

والإمكانات يتولد التوسط، ومعناه، كما قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقصان."[1]

مجمل القول في الأسباب المكونة لكل من الصلاح والفساد أنها ترسم لنا الكيفية التي تعالج بها قضية الإصلاح في القرآن المجيد. فمنشأ القضية في سببين مفصليين؛ السبب الأول: متمثل في الجمود والتناقض اللذين يؤديان إلى الفساد مما يستلزم التدافع الذي به يكون الصلاح. والسبب الثاني: المتجسد في الإسراف الذي يؤدي إلى الفساد مما يستلزم التوسط الذي به يكون الصلاح.

لكل من الصلاح والفساد صور وأمثلة يفضي استقراؤنا لها إلى حصرها في مظاهر مخصوصة، يفضي بعضها إلى بعض ويؤسس بعضها للبعض الآخر، فالمظهر الاعتقادي هو الأساس الذي بصلاحه يكون صلاح المظهر التفكيري، وبصلاح هذا الأخير يكون صلاح المظهر العملي، سواء في وجهه النفساني أم في وجهه البدني أم في وجهه التدبيـري.

= العائلي، إنما تحصل الزعامة وتكتسب القيادة بالعلم النافع والصحيح وبالحرص على أن توضع شريعة الله موضع التنفيذ والتطبيق.

(١) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٤. انظر أيضاً دراستنا:

- الحسني، إسماعيل. **تدبير الشأن الديني في المغرب الراهن ومفهوم التوسط في الإسلام**، ندوة الخصوصية الدينية المغربية ومساهمتها في مواجهة الغلو والتطرف، مراكش: كلية الآداب، ٣٠ ماي ٢٠١٥م.

الفصل الثاني:

مظهر إصلاح الاعتقاد

إن أول ما اهتم القرآن بإصلاحه هو الاعتقادات التي يؤمن بها الإنسان الفرد ويقتنع بها المجتمع والأمة، فلا يخفى أننا نحن البشر نتصرف ونتحرك في هذا الوجود بناء على ما نعتقد أنه حق وبعيد عن الأوهام والضلالات، كما أننا نعمل ونبني مواقفنا في ضوء ما نتصور أنه صحيح وبمنأى عن الأخطاء والآفات. والحق -وكما أدرك ذلك إدراكاً تاماً الإمام محمد الطاهر ابن عاشور- أن "العقيدة أساس التفكير، وهي الفكرة الأولى للإنسان فيما هو خارج عن حاجته، فإذا ربي العقل على صحة الاعتقاد تنـزه عن مخامرة الأوهام الضالة فشب على سبر الحقائق والمدركات الصحيحة."[1]

وعليه إذا كان التفكير مؤسساً على الاعتقاد، فإن العمل مؤسس على التفكير؛ لأننا لا ندخل إلى حقل الأعمال والممارسات المختلفة ونحن مجردون من أي سلاح اعتقادي أو عدة فكرية أيّاً كان نوعها وأيّاً كان مستواها، وانطلاقاً من هذا الأساس الاعتقادي - التفكيري ندرك المغزى من اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن المجيد، فهو ثمرة للإيمان، يغذي أحدهما الآخر ويقوي بعضهما بعضاً.

---

(١) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٥١.

يفضي استقراؤنا للقرآن المجيد إلى القول بأن العمل الصالح هو كل فلاح قائم على الإيمان ومتولد عنه، ومن ثم ندرك كثرة الآيات القرآنية التي تربط ربطاً وثيقاً بين الإيمان والعمل الصالح. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

يقتضي تبين المظهر الاعتقادي لمفهوم الإصلاح في القرآن المجيد الجمع بين ما ورد من مفردات مادة صلح أو فسد وبين ما ورد من مفردات مغايرة، فإذا اقتصرنا على مفردات مادة صلح وفسد في هذا الباب فسيجد المتتبع نفسه إزاء معطى أساسي ينبهنا إليه القرآن المجيد، والذي يتمثل في حتمية الرجوع إلى الحق من أجل الاحتكام إليه في مسائل الاعتقاد، وفي طليعتها مسائل الإيمان بوحدانية الله تعالى، والإيمان بالبعث، والإيمان بالحساب وبالعقاب في اليوم الآخر وغيرها من المسائل الإيمانية. قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١].

بسيادة الإيمان وبهيمنة مقتضياته في الوجود الدنيوي يكون صلاح الإنسان الفرد، ويكون أيضاً صلاح المجتمع والأمة، فلو فرض عدم البعث

للجزاء لكان الثابت والحق هو أن لا جزاء على عمل، ومن ثم لا يعود الناس عاملين للخير أبداً إذ لا رجاء في الثواب، وإنما يعملون الشر إذ لا خوف من عقاب... فلو كان الحق متبعاً لأهواء الناس لانتشر الفساد في الأرض فيغمر الشر الخير، والباطل الحق وذلك فساد لمن في السماوات والأرض.

أولاً: مبدئية حقيقة الوحدانية وفساد السماوات والأرض

وهكذا إن أول مظهر لفساد الاعتقاد هو أن لا تسود الحياة المجتمعية الحقائق الاعتقادية، وفي طليعتها وحدانية الله تعالى، وأنه لم يلد ولم يولد، وكون البعث واقعاً للجزاء، وكون الكون من خلق وصنع الخالق؛ لأن منشأ التناسق الملحوظ في نظام الكون، والذي لا ينكره أشد الملحدين، هو أنه من صنع إرادة واحدة لإله واحد، هو الحق الذي يدير الكون فلا يتبع ناموسه ما يعرض من أهواء الود والبغض، والرغبة والرهبة، والغضب والرضى، والنشاط والخمول، وغيرها من المواجد والانفعالات الطارئة، ولو حصل ذلك لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن من أوضاع وموازين ومقاييس. لقد جعل الإسلام، وانطلاقاً من قاعدة التناسق، التشريع لحياة الإنسان جزءاً من الناموس الكلي الذي يتولاه الله تعالى، مدبراً للكون كله ومنسقاً من خلال سننه أجزاءه ومظاهره المختلفة، والإنسان لما كان جزءاً من هذا الكون كان خاضعاً لناموسه الكبير، ولهذا فالأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. وبذلك لا يخضع النظام البشري للأهواء الذاتية والأنانيات

الشخصية فيفسد ويختل.[1]

والحاصل أن الاعتقاد في الخالق سبحانه لئن كان هو مبدأ الحقائق الاعتقادية في القرآن المجيد، فإن هوى المشركين أن جعلوا كمال الله متجسداً في أن يكون له ولد، فلو كان هذا الهوى هو الحقيقة، أي لو كانت الحقيقة هي تعدد الآلهة لفسدت السماوات والأرض وعوالمها لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولقوله تعالى أيضاً: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].[2] وعلى الرغم من أهمية هذه الحقيقة المبدئية في الصلاح الاعتقادي فلا يمكننا

---

(١) يعضد ويسند هذا المعنى مبدأ الإفادة المستنبط من القرآن المجيد كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقوله أيضاً: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢]، وقوله أيضاً: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩]. وعلى كل حال يضفي عنصر الإفادة، باعتباره مبدأ قرآنياً، على كل موجود، صغيراً كان أم كبيراً، غاية فيحدد له دوراً ووظيفة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وإن التشبع بهذا المبدأ القرآني لينقل المسلم، وبالأحرى العالم في الإسلام، من فكر المصادفات إلى فكر علمي، يقوم على إدراك واكتشاف العلاقات، فينشأ بذلك حالة عقلية ويقظة ذهنية، تهيئه للتعامل مع المعطيات المختلفة الكونية والمجتمعية تعاملاً علمياً يروم الظفر المؤقت، والإجرائي بالقوانين التي تفسرها. للتوسع انظر:

- الحسني، إسماعيل. **فقه العلم في مقاصد الشريعة الأعلام المجالات المفاهيم**، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٨٢.

(٢) ومن هنا نفهم كما قال بعض الباحثين "سر حملة القرآن على الكفر والشرك والنفاق، من حيث كونها الكفر، الشرك، النفاق تدميراً للكون والحياة، ومن حيث إنباؤها عن انعدام التصور الحق إزاء قضايا الوجود". انظر:

- الدغامين، **إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي**، مرجع سابق، ص٦٢.

الاقتصار عليها؛ لأن هذا الصلاح لا يتوقف بيانه على مجرد استقراء مفردات مادة صلح وفسد، وبكلمة أخرى إن صلاح الاعتقاد في القرآن الكريم مرتبط أيضاً بما يقوم عليه الإيمان من أركان وبما ينبغي أن يكونه الإنسان من تصور عن نفسه وحياته، وعن الكون ومخلوقاته.

ثانياً: أركان الإيمان ومصالحه

تتعدد وتعز عن الحصر الآيات التي تدعو إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالملائكة وبالرسل والأنبياء وباليوم الأخر وبالقضاء والقدر خيره وشره، منها قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وفي هذا السياق نستحضر المغزى الإصلاحي من اعتناء القرآن بأمر العقيدة[1] إذ حاطها بأمرين عظيمين،

(١) لما كانت عقيدة التوحيد أساس إصلاح التفكير والتخليق في القرآن المجيد فقد سلك كتاب الله تعالى من أجل التمكين لها ثلاثة مسالك؛ أولها: مسلك الجمع بين الترهيب والترغيب، الترهيب بما يعنيه من وعيد وإنذار، والترغيب بما يعنيه من وعد وتبشير. والثاني: مسلك الدعوة إلى النظر والتفكر في القرآن، وفي الكون، وفي النفس، وفي الآفاق لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]. وقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١]. والمسلك الثالث: هو مسلك الحث على قراءة القصص وأخبار الأمم السابقة من أجل الإفادة من أحوالها الصالحة، بكل ما تعنيه الإفادة من استخلاص للدروس والعظات، وبكل ما ترشد إليه الإفادة من اعتبار بالعواقب والمآلات لقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣]. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٥]. انظر: =

سماهما الإمام ابن عاشور بـ"التفصيل" و"التعليل".

"التفصيل"؛ أي إيضاحها لسائر الناس وفضح عقائد الضالين والإغلاظ عليهم وسد ذرائع الشرك.

و"التعليل"؛ أي استدعاء العقل الإنساني إلى إعمال قدراته الاستدلالية والنظرية عند التفكير في الخالق وفي الكون وفي النفس وفي الآفاق المختلفة.

وهكذا يقترن إصلاح العقائد أولاً وقبل كل شيء بوحدانية الله تعالى، وبإثبات بعثة الرسل، وأنهم عباد مكرمون، وأنهم وغيرهم لا يملكون شيئاً إلا بأمره لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، ولقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

=- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣٠، ص٤٢٦.

ومن هذه الدروس أن البشر آمنوا منذ نشأتهم بالله وببعض صفاته لقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]. أما فساد اعتقاد إيمانهم؛ فأمر طارئ بسبب الإشراك والتعطيل والخطأ في صفات الله تعالى. يراجع تفاصيل ذلك في:

- ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٤٧.

كما ينطوي الإيمان بمختلف أركانه على جملة من المصالح الدنيوية والأخروية. فـ"الإيمان أفضل الأعمال لجلبه لأحسن المصالح ودرئه لأقبح المفاسد، مع شرفه في نفسه وشرف متعلقه."[1] نستحضر في هذا الباب مصالح متعددة.

منها أن الإيمان باليوم الآخر أو بيوم الجزاء ينبئ عن مصلحة تنزيه الله تعالى عن العبث في أفعاله وأحكامه، وبيان ذلك أن كفر الإنسان بالبعث والجزاء يلزم عنه الكفر بالحكمة الربانية وبالعدل الإلهي في الخلق، بل إن من لوازم هذا الكفر احتقار الإنسان لنفسه لأنه قد يعتقد كما قال الشيخ محمد رشيد رضا: "أنه خلق عبثاً لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغض بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام، وأنه يترك سدى لا يجزي كل ظالم من أفراده بظلمه، وكل عادل وفاصل بعدله وفصله."[2]

ومنها مصلحة حفظ الدين الذي به تستقيم المصالح الدنيوية كما بين الإمامان الشاطبي وابن عاشور رَحِمَهُمَا اللَّهُ، فلا تتحقق هذه المصلحة إلا إذا حوفظ على آحاد عموم المسلمين وعموم أمتهم من كل ما يفسد اعتقادهم وينقض أصول عقيدتهم كالبدع والخرافات وأنواع الشرك والإلحاد

(١) ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، ضبط ومراجعة: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ط٢، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ج١، ص٥٤.

(٢) رضا، محمد رشيد. **الوحي المحمدي**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١٠، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص١٧٨.

والزندقة وغيرها.[1]

ومنها مصلحة حفظ الأعمال فلا تكون هباء منثوراً لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ثالثاً: التصور الاعتقادي

إن صلاح الاعتقاد مرتبط، إضافة إلى أركان الإيمان، بتوضيح للتصور الاعتقادي الذي ينبغي أن يكونه الإنسان عن نفسه وحياته من جهة، ويكونه عن الكون وما فيه من جهة ثانية. فقد أبرز القرآن المجيد المراحل التي مرت منها نشأة الإنسان، باعتباره خليفة لله في الأرض ميزه الله تعالى بجملة من الخصائص التي تميزه عن سائر المخلوقات. ينص القرآن على ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة خلق الإنسان من طين ومن روح تتمثل في نفخة من الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧١ - ٧٢].

---

(١) يراجع للتوسع في ذلك التأصيل السياسي والتأصيل التشريعي لمعاني الحفظ في كتابنا:

- الحسني، إسماعيل. **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٢٩٦.

الثانية: مرحلة تكوين النسل والذرية التي حصلت من تزاوج آدم وحواء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الثالثة: مرحلة امتداد الذرية التي نشأت من اختلاط ماء الرجل والمرأة بعد الزواج، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٢]، ومآل إنسان -مهما استطال به العمر- هو الموت الذي ينتقل من خلاله إلىٰ الحياة الأخرىٰ من أجل الحساب والجزاء علىٰ ما قدمه من أعمال لقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إن الإنسان خليفة الله في الأرض لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي أن الله تعالىٰ كلفه بمهمة عبادته وأن يكون مسؤولاً وأميناً عن كل ما استخلفه، والآيات القرآنية في هذا الباب كثيرة: منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾

[الأحزاب: ٧٢]، ومنها قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤].(١) ومنها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وحتىٰ يكون الإنسان قادراً علىٰ القيام بهذه المسؤولية خصه الله تعالىٰ بجملة من الخصائص، من أبرزها الكرامة لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].(٢) ومن أبرزها أيضاً أنه كائن حر لا سلطان لمخلوق عليه لقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الإنسان كائن سخر الله له الكون وما فيه من سماوات وأرض وغير ذلك من المخلوقات التي سخرها الله تعالىٰ للإنسان بالحق(٣) لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا

---

(١) للتوسع في ما تقرره هذه الآيات. انظر:

- قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، القاهرة: دار الشروق، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص٤٣ و٩١.

- حامدي، عبد الكريم. **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص٨٤ وما بعدها.

(٢) للتوسع في هذه النقطة. انظر:

- الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، دراسة وتحقيق: إسماعيل الحسني، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، ص٣٤٠.

(٣) الله تعالىٰ هو خالق الكون وموجده لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]،=

خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥]. وللحق مظاهر:

منها أن يقابل ما سخره الله وأنعم به بالشكر لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠].

ومنها أن يكون التفكر في الكون طريقاً من طرق الهداية إلىٰ الله تعالىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ومنها أن يكون الكون مسخراً للإنسان ولهدايته لقوله تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٣ - ٣٤]، ولقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل: ١٤]، ولقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]. قال الأستاذ صالح سليمان: "الإنسان الصالح في علاقته بالكون المسخر من الله، يتلمس الظواهر الكونية، ويتأمل في الأسباب التي تحكمها، يزداد يقيناً أن ثبات خلق الكون مبدأ أصيل في الإسلام، ولم يكن نتيجة التطور والتغير فيه، ... كما أنه يستشعر أن هذا الكون مخلوق عابد لله مثله، يسبح له طوعاً وتنـزيهاً، وهذا الإنسان يدرك عظمة خلق الكون والحكمة من

= وترك القرآن للعلماء المتخصصين النظر في تفسير تاريخ نشأته وفي تحديد وضبط القوانين المفسرة للعلاقات بين ظواهره.

وجوده، فيردد مسبحاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، كما أنه يؤمن أن الله يزيد في الخلق ما يشاء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]."[(١)]

ندرك، انطلاقاً من هذا الاعتناء القرآني بالمظهر الاعتقادي، القولة المشهورة والتي تنسب إلى الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"[(٢)] ومن أبرز ما صلح به أولها أن عقيدة الوحدانية في القرآن المجيد ترسخ لمصلحتين عظيمتين:

المصلحة الأولى: مصلحة عقلية تبرز في ذهنية استدلالية قائمة على كل ما يشهد له الدليل، فلا يتعلم الإنسان منها فحسب كيف ينفعل، وكيف يتظاهر، وكيف يحتج، وكيف يركض...، وإنما يتعلم منها أيضاً كيف يفكر،

---

(١) نقلاً عن:

- الغامدي، علي خميس. **الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي**، مكة المكرمة: دار طيبة الخضراء، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص١٥٠.

(٢) روي أن أناساً من أهل المدينة كانوا يقفون عند قبر الرسول محمد ﷺ عند قدومهم من أسفارهم أو أيام الجمعة؛ فيسلمون ويدعون ساعة، فسئل الإمام مالك في شأن ذلك، فقال: "لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك. ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده". انظر:

- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ**، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الكتاب العربي، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ج٢، ص٦٧٦.

وكيف يحاور، وكيف يتواصل، وكيف يجتهد. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦].

المصلحة الثانية: تتجسد في تحرر الإنسان من عبودية غير الله لأن القرآن ينفي أي نوع من أنواع القداسة على أي فرد من الناس حتى ولو كان نبياً أو رسولاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨].

إن التربية على مقتضيات هاتين المصلحتين العقلية والتحررية لمن شأنه أن يثمر إصلاح الاعتقاد إصلاحاً مستمراً؛ لأنها تنـزه العقل الإنساني عن مخامرة الأوهام ومعاقرة الضلالات. وبذلك يكون الإنسان، انطلاقاً من هذه الذهنية المتحررة إنساناً جديراً بتحمل مسؤولية الخلافة والتكليف، وإلا كان في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]."[1] وحتى لا يسقط في شرك الأسفلين لا بد من التدافع بين الناس لأنه سبب مفضي إلى صلاح الأرض، وبدونه يكون الفساد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

---

(١) فالإنسان بغير الإيمان بإله واحد يصير في أسفل سافلين، وهل أسفل، كما قال الإمام بن عاشور: "ممن يعتقد إلهية الحجارة والحيوان الأبكم من بقر وتماسيح أو ثعابين أو شجر السمر. أو من يحسب الزمان إلها ويسميه الدهر، أو من يجحد وجود الصانع إلها، وهو يشاهد مصنوعاته ويحس بوجود نفسه". انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣٠، ص٤٢٦.

الفصل الثالث:

مظهر إصلاح التفكيـر

لا يسعفنا كثيراً استقراء وتتبع مادة صلح وفسد في هذا المضمار من أجل تبين هذا المظهر المكون لمفهوم الإصلاح في القرآن المجيد، فإذا اقتصرنا على هذا الاستقراء فلن نتمكن من تبين نوع الإصلاح الذي يرسخه القرآن المجيد في التفكير الإنساني، ومن ثم إن الحاجة ماسة وضرورية لتبين حدود هذا الاستقراء، بل والتعالي عليه من أجل إدراك ما يتفرع عن إصلاح الاعتقاد من صلاح في التفكير.

أولاً: المبادئ العقلية لصلاح التفكير

المعيار في صلاح التفكير متمثل في قيامه على مبادئ النظر، والمحاسبة الذاتية، والتثبت، والموضوعية، والحجية وغيرها من المبادئ التي يمكن إدراجها في هذا الإطار.(١)

أ- مبدأ النظر إلى الأنفس والآفاق المختلفة من أجل استخلاص السنن والقوانين الناظمة. ويدل على هذا المبدأ آيات: منها قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، منها قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ

(١) من ذلك مبدأ الموازنة بين المصالح والمفاسد، ومبدأ التبصر بالمآلات والعواقب الذي تنطوي عليه آيات تحريم الخمر خاصة من خلال قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩١].

خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥]، ومنها قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]. ومنها قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

ب- مبدأ المحاسبة الذاتية، أو ما سماه الأستاذ علال الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ"النقد الذاتي"[1] وهو مبدأ مستنبط من قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٠]. يولد التشبع بهذا المبدأ نزوعاً أولياً إلىٰ كشف الأسباب الذاتية التي تفسر القصور والأعطاب، فلا يسارع الناقد للوهلة الأولىٰ إلىٰ تحميل الآخرين مسؤولية ارتكاب الأخطاء وأنواع الفشل، فحين وقع آدم في الخطيئة مع زوجه حملا أنفسهما المسؤولية ولم ينسباها إلىٰ الشيطان بالرغم من إغوائه لهما، ولكن إبليس حين غوىٰ نسب الإغواء إلىٰ الله تبريراً، فالأول: منهج الصالحين، والثاني: منهج تفكير شيطاني مذموم، قال تعالىٰ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ

(١) عملنا علىٰ دراسة وضبط هذا الكتاب القيم. ينظر كتابنا:

- الحسني، إسماعيل. **الأستاذ علال الفاسي وكتابه النقد الذاتي**، كتاب قيد النشر في المستقبل القريب إن شاء الله.

أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٢ - ٢٣].

ت- مبدأ التثبت وما يقتضيه من تبين وإحاطة، التثبت واضح في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]. وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٞ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١٥ - ١٧].

يظهر أن لهذا المبدأ دوراً كبيراً في إصلاح القرآن المجيد تفكير الناس، إذ يجد المتتبع لكتاب الله تعالىٰ نفسه إزاء أهمية وحتمية واجب التثبت والتبين في نقل أخبار الشريعة ورواياتها.

أما ما يقتضيه التثبت من تبين وإحاطة شاملة؛ فمستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]. قيل للحسين بن فضل: هل تجد في القرآن من جهل شيئاً عاداه؟ قال: نعم، في موضعين: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١١].[1]

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن محسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ج١٠، ص٥٠٥.

يتحدث القرآن المجيد في هذا المضمار عن ظاهر العلم، وعن الإحاطة به، وعن الرسوخ في ظاهر العلم كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٦ - ٧]. والإحاطة بالعلم بكل ما تعنيه هذه الإحاطة من تمكن منهجي بمكونات الموضوع وفهم شمولي للعلاقات بين أطرافه المختلفة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]. والرسوخ في العلم بكل ما يعنيه الرسوخ من قدرة علىٰ بناء الآراء والتأويلات وتكوين النظريات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ث- مبدأ الموضوعية؛ أي عدم الاحتكام إلىٰ ما تهواه النفوس لقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨﴾ [النجم: ٢٨]، وقوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، ولقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ج- مبدأ الحجية الذي يقوم علىٰ الاستناد إلىٰ الدليل، والآيات التي تدعو إليه كثيرة ومتعددة: منها قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

ثانياً: دور المبادئ العقلية في صلاح التفكير

يبدو أن لمبدأ الحجية دوراً في إصلاح القرآن المجيد تفكير الناس، فقد نهى القرآن، خاصةً في مجال العقيدة عن التقليد، ودعا إلى الاحتكام إلى الدليل، وأقام الحجة على المشركين وغيرهم، وأظهر للبشر ما في مطاوي عقائدهم من إفن الرأي وتناقض الحجج والآراء، يكفي أن نستحضر قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج: ٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢٠ - ٢١].(١)

---

(١) تكاد الآيات القرآنية في هذا المضمار تعز عن الحصر، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥]، وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: ٩٥]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

أما في مجال الشريعة؛ فقد كان لمبدأ الاستناد إلى الدليل دوراً في ترسيخ أمرين مفصليين؛ الأول: مراعاة مبدأ التخصص العلمي لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧].

الثاني: التعليل، ولكن ليس بمعنى الفائدة للفاعل، وإنما بمعنى وضع العلة في تضاعيف الحكم القرآني، كما في لامات التعليل الداخلة عقب بيان الأحكام القرآنية.

لا ننسى أن القرآن المجيد عرض لمعظم أحكام العبادات والمعاملات عرضاً مرفقاً بكثير من التعليلات لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١]، وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ٣٣]، ولقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. كما أن معظم العبادات معللة في القرآن المجيد بعلل مصلحية دنيوية يفيد منها الإنسان لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقوله: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كلها مبادئ تجعل تفكيرنا تفكيراً سليماً، وكلها مبادئ تسهم في امتلاكنا للتفكير السليم،[1] أو لما سماه القرآن الكريم القلب السليم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]، وفي قوله أيضاً: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، وفي قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. قال الزمخشري: "فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور؟ قلت: الذي تعورف، واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار،"[2] والحق أنّ ما يعضد ذلك أن التفكير مقصد من المقاصد التي أنزل من أجلها القرآن المجيد، وسخر من أجلها الكون الفسيح للإنسان، فهو مقصد من المقاصد التي يتقصدها إنزال القرآن المجيد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

---

(١) وكلها أيضاً مبادئ تجعلنا نتفهم ما ذهب إليه الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما قال: "إن إصلاح التفكير من أهم ما قصدته الشريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق إصلاح الأفراد". انظر:

- ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٥٢-٥٣.

(٢) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ج٣، ص١٦٤.

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]. كما أنه مقصد من المقاصد التي من أجلها خلق الكون، وهو ما نص عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]. ولقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠].

فضل الله تعالى، انطلاقاً من صلاح التفكير، بعض الناس على بعض، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ولهذا انتقد القرآن المجيد أهل الجهل والجاهلية، وعاب على المقلدين، كما في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٩]، ولقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

صفوة القول أن القيام بهذا الإصلاح التفكيري هو الدليل الذي نبرهن من خلاله على الوسطية التي تنسب إلى المسلمين في القرآن، والتي

هي مصدر خيرتهم ومنشأ شهادتهم وأستاذيتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الفصل الرابع:

مظهر إصلاح العمل

نعني بالعمل هنا ما يصدر عن الإنسان من أفعال سواء كانت نفسانية صادرة عن ذاته الباطنة، أو كانت أفعالاً صادرةً من أعضائه وجوارحه، فالعمل الإنساني إما أن يكون أفعالاً باطنيةً تتمثل في الانفعالات النفسانية التي تفسر إقدامه على فعل ما من الأفعال التي ترتكبها أعضاؤه أو تجترحها جوارحه، وإما أن يكون أفعالاً خارجية تقوم بها أعضاء الإنسان وجوارحه لتحصيل مقصود دفع إليه التفكير.

أولاً: العمل النفساني

بقدر ما يكون مهما استقراء مادة صلح وفسد من أجل تبين البعد النفساني لمفهوم الإصلاح القرآن المجيد، يتعين أيضاً تبين حدود هذا الاستقراء؛ لأنه توجد مظاهر عملية أخرى لبنية إصلاح العمل النفساني لا ترتبط بمفردات مادة صلح وفسد في القرآن المجيد، ويبدو ذلك في جملة من الأعمال النفسانية التي نميز فيها بين شطرين:

الشطر الأول: يحث على التحلي والتخلق بالتواضع والحلم والحب والود والقناعة والكرم والصدق والوفاء والعفو وغيرها مما يماثلها.

الشطر الثاني: يحث على التخلي والانتهاء عن الكبر والعجب والغضب والغل والحقد والحسد والشره والبخل والرياء والغرور والكذب وغير

ذلك مما يماثلها. فعلى سبيل المثال نهى القرآن عن الشره في الأكل والشرب واللباس والنكاح وأمر بما يخالفه من اعتدال وتوسط كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].(١)

لقد اهتم القرآن المجيد بإصلاح نفساني يتمثل في تزكية الإنسان، باعتبارها مقصداً من مقاصد البعثة والرسالة التي جاء بها القرآن المجيد وبينتها سنة وسيرة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

إن التزكية تطهير إصلاحي للنفوس التي تعترضها الأرجاس الناشئة عن الضلال أو التضليل. وعملية التطهير الإصلاحي مزاوجة بين التخلية والتحلية لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالتخلية تعني التخلي عن الرذائل، والتحلية التحلي بالفضائل، بهذا التطهير الإصلاحي يتمكن الإنسان من ممارسة أمانة التكليف والخلافة، فلا يصلح -كما بين الراغب الأصفهاني- "لخلافة الله ولا يكمل لعبادته

(١) للتوسع في هذه النقطة انظر ما كتبه الأستاذ علال الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فقرة مكارم الأخلاق مقياس كل مصلحة عامة، وأساس كل مقصد من مقاصد الإسلام من:

- الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، مرجع سابق، ص٣٠١.

وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس، قد أزيل رجسها ونجسها، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة... وإلى الطهارتين أشار بقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٤ - ٥]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]"[1] وقال أيضاً: "لما كانت السياسة ضربين؛ أحدهما: سياسة الإنسان نفسه وبدنه، وما يختص به، والثاني: سياسة غيره من دونه وأهل بلده، فإنه لا يصلح بسياسة غيره من لا يصلح سياسة نفسه، ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره مع إهمال نفسه، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر دون أن يهذب نفسه، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]."[2]

١ - دور العبادات الإسلامية في إصلاح العمل النفساني:

تقوم العبادات الإسلامية بدور كبير في إصلاح العمل النفساني، فالصلاة تزكي النفس وتسهم في تطهرها؛ لأنها من ضمن الأعمال الحسنة التي تمحو الآثار السيئة للأعمال السيئة لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ولقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والمقصد من تشريع الصيام هو التقوى لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]. ويظهر مقصد التقوى في مظاهر متعددة، وفي طليعتها تربية ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه، وكل ذلك يدفع من جهة بالصائم إلى تطهير نفسه وضبط غرائزها وكبح جماح أهوائها، ويدفع من جهة أخرى بالصائم إلى إثارة مشاعره العاطفية والرحيمة فتبذل وتعطي وتكرم.

ويتضح التطهير الإصلاحي للنفس أيضاً في الحج والزكاة، إذ هو واضح في الحج لقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، ولقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٣٣]، ولقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ولقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الزكاة؛ فتطهير للنفس من خلق البخل بالنسبة للغني، وتطهير لها من خلق الحقد أو الحسد بالنسبة للفقير، ففيها تخلية وتحلية: تخلية النفس من دنس البخل وعدم الإحساس بحال الفقراء وتحلية النفس بالكرم والإحساس بهموم الفقراء والتضامن معهم والبر بهم،[1] وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ

(١) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢] في:
- قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠٧.

أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقد حددت الآية في نظر الشيخ محمد رشيد رضا[١] مقصدين؛ الأول: مقصد التعبد بالإنفاق مما يجعل الغرض من فعل الإنفاق مرضاة الله تعالىٰ، والثاني: مقصد تطهير النفس من الأخلاق المذمومة التي تمنع من بلوغ الكمال من مثل البخل والشره.

٢- دور المحاسبة في إصلاح العمل النفساني:

كلها عبادات لها أثر في إصلاح النفس فتجعلها متذكرة ومتيقظة، إرادتها قوية، لها حس اجتماعي تجعل صاحبها مندمجاً في الحياة المجتمعية.[٢] نعم لا شك في ذلك، ولكن علىٰ الرغم مما يمكن أن ترسخه هذه العبادات من إصلاح نفساني، فإنها تبقىٰ مفتقرةً إلىٰ عنصر مكمل يتمثل في المحاسبة. فلا يزال المرء، يحاسب نفسه ويصوب أخطاءها ويربيها علىٰ الإقلال من العمل بما تمليه هذه الانفعالات السيئة أو الأخلاق المذمومة حتىٰ يحصل له الانكفاف عن العمل بآثارها السيئة لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].[٣] ولهذا أشار القرآن المجيد

---

(١) رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، تحقيق: فؤاد السراج عبد الغفار، القاهرة: المكتبة التوفيقية، (د. ت.)، ج٣، ص٦٧.

(٢) للتوسع في هذا انظر:

- حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، مرجع سابق، من فقرة أثر العبادات في الإصلاح النفسي، فقرة ص١٨٦ وما بعدها.

(٣) معنىٰ زكاها أنماها وأكملها؛ أي أبلغها الكمال بالعلم الصحيح والعمل الصالح الجاري علىٰ=

إلى أهمية المحاسبة بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢] فبقدر ما تميت المحاسبة الإحساسات السلبية في نفس المسلم كالعجب والغرور وغيرها، فإن التزكية تحمله على إصلاح وتنمية ما يناقضها من فضائل قلبية كالإخلاص والإحسان وحسن النية والصبر والتوكل والرضى بالقضاء بالقدر، وكلها من الأخلاق التي حث القرآن الكريم على حسن استعمالها في مواضعها الصحيحة.(١)

ولا تكون المحاسبة ناجعة إلا إذا أوجدنا وازعاً نفسانياً داخلياً يمنع النفس من الانحراف عما اكتسبته من منافع، ويمكنها من تنمية ما راكمته من مصالح. ومن ثم أوجد الله تعالى في النفوس البشرية الخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]. ومن ألطف وأدق ما قرأته لعلماء الإسلام في هذا الباب ما سطره الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: "الخوف

= مقتضى العلم، فإن التزكية مشتقة من الزكاء، وهو النماء، ثم أريد بالتزكية تطهير النفس من الرذائل؛ لأن ذلك التطهير تطهير لا يحصل إلا بمجموع الإنماء بالعلم والعمل. ومعنى دساها ضد معنى زكاها؛ أي نقصها، وأصله من الدس، وهو الإدخال؛ لأن غالب التنقيص في المحسوسات يكون بإدخال آلة لعلاج انقطاع الأمر المنقوص. انظر هامش رقم ١ من:

- ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٢٥.

(١) من ذلك التوكل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومن ذلك حال القنوت والحفظ بالنسبة للنساء، والقوامة بالنسبة للرجال لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

والرجاء... أفضل سياسة للنفوس لأنه يجمع إثارة عاملي الخشية والمحبة، وبدوام الارتياض على ذلك يتغلب عامل المحبة لأن المحبة من شأنها النماء، فإذا تغلب عامل المحبة صارت الخشية وقاراً واقتضت الطاعة الاختيارية، كما قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع."[1]

صفوة القول أنّ إصلاح القرآن للعمل النفساني قائم على المحاسبة الذاتية والتزكية الجامعة بين التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، وذلك هو ما ترسخه العبادات الإسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج، فلا عجب بعد هذا إذا عدّ الأستاذ العلواني التزكية قيمة من القيم المحورية التي تدور عليها معظم المقاصد القرآنية، إذ موضوعها المركزي هو واقع الإنسان المستخلف وفقاً لما يهدي إليه الخالق الواحد من رعاية مخلوقاته وتدبير شؤونها.[2]

---

(١) الشافعي، محمد بن إدريس. **ديوان الإمام الشافعي**، تحقيق وشرح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)،ص٨٢.

ونسبه الإمام ابن عاشور إلى محمود الوراق، وذلك بلفظ:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

– ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٨٤.

(٢) يراجع في ذلك: =

مجمل القول أنّ إصلاح العمل النفساني هو بمثابة التدافع بين التخلي والتحلي؛ التخلي عن أخلاق الجاهلية، والتحلي بمكارم الأخلاق التي جاء بها القرآن وجسدها الرسول الخاتم محمد بن عبد الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثانياً: العمل البدني

نميز في المظهر البدني للإصلاح في القرآن المجيد بين جانبين؛ جانب حرص القرآن المجيد على صلاح الجسد بسلامته من الأمراض وصحته وعافيته، وجانب ما تقدمه مادة صلح وفسد من معطيات تبرز نوع تفاعل الجوارح والأعضاء البدنية مع الأوامر والنواهي القرآنية.

١ - السلامة الجسدية وإصلاح العمل البدني:

لا يمكن للباحث في تحديده لهذا المظهر البدني أن يقتصر على ما يقدمه استقراء مادة صلح أو فسد من معطيات وبينات على الرغم من أهميتها وجدواها فإنها تظل ناقصة إذا لم يربطها بالمقصد العام الذي جاء من أجله القرآن المجيد، فالإنسان كخليفة لله لا يمكن له أن يؤدي أمانة التكليف ببنية بدنية فاسدة، فالمطلوب أولاً وقبل كل شيء أن يحافظ على السلامية الجسدية لهذه البنية، فكما أنه مطالب بالحفاظ على سلامة بنتيه الروحية

=- ملكاوي، فتحي حسن. "التزكية في منظومة القيم الحاكمة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٧، ٢٠٠٩م، ص٥ وما بعدها.

- ملكاوي، فتحي حسن. "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٩، ٢٠١٠م، ص٥ وما بعدها.

مطالب في الوقت ذاته بالحفاظ على سلامة بنيته الجسدية سبب ذلك كما بين الراغب الأصفهاني أنه كائن وسط بين جوهرين؛ جوهر وضيع، وهو الحيوانات، وجوهر رفيع وهو الملائكة، فجمع فيه الخالق بين قوى عالمي الحيوان والملائكة، وهكذا جعل الخالق الإنسان كالحيوان في الشهوة البدنية والغذاء والتناسل، والمهارشة، والمنازعة وغيرها من الأوصاف الحيوانية، كما جعله كالملائكة في طاقات العقل والعلم والصدق والوفاء وغيرها من الأوصاف الروحية.[1]

وهكذا فإن روح الفكرة الإصلاحية وارد أولاً وقبل كل شيء في المظهر البدني أو الجسمي للإنسان، والمكون من الجوارح التي نحسها وندرك هيكلها، فالمطلوب بحسب القرآن المجيد أن يظل هذا المظهر سليماً ومعافىً من المرض. وأن يبقى هذا الجسم سليماً لا يعتدى عليه سواء أكان هذا الاعتداء بالقتل أو كان الاعتداء على جزء من أجزائه، كما في إتلاف عضو من أعضائه كالعين والأنف والأذن...[2] فالمقصد المصلحي من تشريع القصاص هو التمكين لحق الحياة لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

---

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، بيروت: دار النفائس، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٦٤.

(٢) ولهذا شرع القرآن المجيد القصاص لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقد عبر القرآن المجيد عن الصلاح البدني بألفاظ متعددة؛ عبر عنه تارة بلفظ الصورة الحسنة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وتارة أخرىٰ بلفظ التقويم الأحسن كما في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]. وتارة ثالثة بالبسطة في البدن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وفي قوله أيضاً: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

والحق أنه لا يمكن للجسم الإنساني أن يؤدي وظائفه في الحياة دون أن يكون صالحاً، ولا يكون صالحاً دون أن يأخذ نصيبه من الأكل والشرب واللباس وغيرها من الحاجيات والضروريات الحياتية التي وردت في أكثر من آية من آيات القرآن المجيد.

ورد في شأن الأكل والشرب قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]. فالإسراف منهي عنه؛ لأنه يعود بأضرار كثيرة علىٰ البدن، فتنشأ عنه أمراض معضلة، ومن ثم قال بعضهم: لما نهت هذه الآية الكريمة عن الإسراف كانت جامعة لأصول حفظ الصحة من جانب الغذاء.[1]

كما ورد قوله أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]. كما ورد قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٨، ص٩٦ و ج٩، ص١٣٥.

مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: ٦٦]. كما ورد قوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقوله أيضاً: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة: ٨٨].

والطيبات هي كل ما تستطيبه النفوس السليمة الفطرة، المعتدلة المعيشة بمقتضىٰ طبعها فتأكله باشتهاء، وما أكله الإنسان باشتهاء هو الذي يسيغه ويهضمه بسهولة، فيتغذىٰ به غذاء صالحاً، وما يستقبحه ويعافه لا يسهل عليه هضمه ولا ينال منه غذاءً صالحاً بل يضره غالباً، حيث إن تحريم الطيبات نوع من أنواع الاعتداء الذي نهانا الله تعالىٰ عنه في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [المائدة: ٨٧]، ومعناه، عدم اعتداء فيها بتجاوز حد الاعتدال إلىٰ الإسراف الضار بالجسد، كالزيادة في الشبع والري. قال الشيخ محمد رشيد رضا: "تفضل الله علىٰ هذه الأمة فجعلها أمة وسطاً تعطي الجسد حقه والروح حقها... فأحلّ لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها؛ ليكون لنا فيها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جسمانيين محضاً كالأنعام، ولا روحانيين خُلّصاً كالملائكة."[1]

وفي شأن المنع من تناول ما يضر بالصحة الجسمية من مأكولات ومشروبات ورد تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير[2] وشرب الخمر كما في

(١) رضا، **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٦-٩٧، وج٧، ص١٨.

(٢) قيل في شأن الغايات أو المصالح البدنية المقصودة من تحريم الميتة آراء متعددة: منها ما قاله=

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ...﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والخبائث هي المطعومات والمشروبات الضارة بالبدن من النجاسات والمستقذرات التي سماها القرآن المجيد بأنها "رجس".

= الإمام رشيد رضا: "وإنما حرم الميتة لما في الطباع السليمة من استقذارها، ولما يتوقع من ضررها، فإنها إما أن تموت بمرض سابق أو بعلة عارضة، وكلاهما لا يؤمن ضرره... ويزاد عدم القصد إلى إماتتها بعمل الإنسان." انظر:

- رضا، **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٧-٩٨.

ومنها ما قاله الإمام ابن عاشور: "حكمة تحريم الميتة فيما أرى هي أن الحيوانات لا تموت غالباً إلا وقد أصيبت بعلة، والعلل مختلفة، وهي تترك في لحم الحيوان أجزاء منها، فإذا أكلها الإنسان قد يخاط جزء من دمه لأن المذكى مات من غير علة غالباً، ولأن إراقة الدم الذي فيه يجعل لحمه نقياً مما يخشى منه من أضرار." انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص١١٧.

والمقصد من تحريم الخنزير كما أوضح الإمام ابن عاشور أنه يتناول القاذورات بإفراط فتنشأ في لحمه دودة مما يقتاته لا تهضمها معدته فإذا أصيب بها آكله قتلته." انظر:

- المرجع السابق، ج٢، ص١١٩.

للتوسع في شأن الغايات المصلحية البدنية من تحريم الخنزير وشرب الخمر. انظر:

- رضا، **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، مرجع سابق، ج٦، ص١٣٥.

- وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٣.

وهكذا يحرم تناول الخبائث حفاظاً على سلامة البدن وصلاحه، ويستثنى من ذلك في حالات الضرورة المتمثلة في الحفاظ على المهج من الموت لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٥]. وقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣].(١)

وهكذا إن المقصد الإصلاحي هو الحفاظ على سلامة البدن حتى ولو تعلق الأمر بالامتثال للتكاليف من صيام وصلاة وحج وجهاد. فإذا خاف المريض زيادة مرضه أو تأخر شفائه أباح له القرآن رخصة الفطر في رمضان لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، كما أباح الفطر في رمضان أيضاً للعاجزين عن الصيام لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]. كما أباح القرآن للمريض الذي

---

(١) للتوسع في هذه النقطة، انظر:

- الحسني، إسماعيل. **الاقتراض البنكي والاضطرار الشرعي**، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط٢، ٢٠١٣م، الفصل الخامس.

يخاف من استعمال الماء أن يتيمم، كما أباح للمسافر التيمم عند فقد الماء حتىٰ لا يتعبه طلبه لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] و [المائدة:٦]، كما أباح القرآن التعجل في أيام منىٰ من الحج لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

ولما كان السفر مظنة المشقة فقد خفف القرآن عن المسافرين فلم يكلفهم ما كلفه للمقيمين، فأباح قصير الصلاة لقوله تعال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]. ورفع الجهاد عن المريض حتىٰ لا يرهق بدنه لقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

وفي شأن اللباس ورد قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦]، كما ورد في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]. كما ورد قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: ٨٠].

وفي شأن الطهارة الحسية والنظافة التي تقي من الأمراض منع القرآن من مباشرة النساء حتىٰ يطهرن من دم الحيض لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ

حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. كما أمر بالنظافة في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر: ٤]؛ أي تطهير الثياب من كل الأوساخ وحفظها من النجاسات، ليس فقط أثناء أدائنا وقضائنا للعبادات كالصلوات وشعائر الحج والعمرة، وإنما في الأحوال كلها وفي مختلف الحيثيات حيث امتن الله تعالىٰ على عباده بما أنزل من السماء من ماء في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].(١)

لقد أثنىٰ الله تعالىٰ على الطاهرين المتطهرين، كما في قوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٨] يبدو أنهم رجال لا يحافظون فحسب على طهارة أرواحهم من الرذائل ومنكرات الأخلاق والأهواء، وإنما يحافظون على طهارة أبدانهم فيجتهدون في الأخذ بأسباب الوقاية التي يصونون بها أبدانهم فتبقىٰ بمنأىٰ عن الأوساخ والخبائث.

لقد خلق الله تعالىٰ الأرض وما فيها وخلق الكون وما فيه كي يستعمله الإنسان فتتحقق مصالحه المختلفة، ومنها مصلحته البدنية لقوله

---

(١) قال الشيخ رشيد رضا في سياق تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]: "يطهركم من القذر والأذىٰ ومن الرذائل... فتكونون أنظف الناس أبداناً وأزكاهم نفوساً وأصحهم أجساماً وأرقاهم روحاً، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالجمع بين طهارة الروح وتزكيتها، وطهارة الأجساد وصحتها، فإنما الإنسان جسد وروح، لا تكمل إنسانيته إلا بكمالهما معاً." انظر:
- رضا، **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٥٨.

تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ولقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ولقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: ١٠].

الأرض بما فيها من أنهار ووديان وبحار ومحيطات وزروع، وبما فيها من حيوانات مما يدب في الأرض ومما لا يدب فيها... كل ذلك وغيره مما سخره الله تعالىٰ للإنسان فتتحقق مصلحته البدنية، بل لقد جعل الله تعالىٰ الأرض ممدودة لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الحجر: ١٩]، ومعنىٰ ممدودة أنها مبسوطة علىٰ هيئة الفراش تيسيراً للحركة والنشاط الجسمي.[1] كما جعل الله تعالىٰ هذه الأرض ذلولاً للإنسان ليمشي فيها فينعكس ذلك إيجاباً علىٰ صحته البدنية لقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] فلم يجعل الله أرضه صعبة أو خشنة، وإنما جعلها سهلة تساعد علىٰ الحركة والنشاط والحيوية.

كما هيأ الله تعالىٰ النظام الفلكي كي يكون متناغماً مع ما تتطلبه المصلحة البدنية للإنسان كالشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار، وما في كل ذلك من منافع ينتفع بها الإنسان في راحته وفي نومه، وفي هذا الإطار جاءت كثير من آيات القرآن من أمثال قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

(١) الشوكاني، **فتح القدير**، مرجع سابق، ج٤، ص١٤٦.

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٨]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٦١] إن منافع الليل والنهار -وكما بين الإمام ابن عاشور- "نيطت بهما أكثر مصالح هذا العالم ومصالح أهله،... ومن مصالح سكان العالم سكون الإنسان والحيوان في الليل لاستبراد النشاط العصبي الذي يعيبه عمل الحواس والجسد في النهار، فيعود النشاط إلى المجموع العصبي في الجسد كله وإلى الحواس."[1] كما يستفيد الإنسان من أشعة الشمس فينتفع بدفئها وبضوئها وبحرارتها وبطاقاتها المتجددة. ويستفيد الإنسان من الرياح التي ننقل حركات السحب فتحمل الغيث للناس لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢].

مجمل القول إنّ سلامة الجسد وعافيته مقصد إصلاحي قرآني يستنبط من حرص الآيات القرآنية على أخذ الجسد نصيبه من الأكل والشرب واللباس وغيرها من طيبات الحياة،[2] ومن تسخير الله تعالى للإنسان،

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٤، ص١٨٤.

(٢) للتوسع في هذه النقطة ينظر ما بينه الغزالي في شأن حفظ سلامة البدن. ومن أبرز ما بيّنه قوله: "إن الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى، والبدن مركب، فمن ذهل عن تدبير=

صاحب هذا الجسد، ما خلق له من سماوات وأرض وما فيهما من أنظمة متعددة، وليست سلامة الجسد وصلاحيته هي الصورة الوحيدة للصلاح البدني في القرآن المجيد؛ لأن استقراءنا لمادة صلح وفسد في هذا المضمار يفضي بنا إلى صورة أخرى تتمثل في صورة التفاعل مع ما في القرآن من أحكام وتعاليم.

٢- التفاعل مع القرآن المجيد وإصلاح العمل البدني:

أعني بالتفاعل مع القرآن المجيد نوع الاستجابة التي يتلقى من خلالها صاحب الجسد السليم ما يفهمه وما يتعقله من تعاليم القرآن ومن أحكامه ومن أنواع هديه، ولهذا نميز في هذه الاستجابة بين تفاعل سلبي يضفي الفساد على ما تمارسه جوارح الإنسان وأعضاؤه، وبين تفاعل إيجابي يضفي الصلاح على ما ترتكبه تلك الجوارح وهذه الأعضاء.

أ- الصلاح البدني والتفاعل السلبي:

التفاعل السلبي مع ما جاء به القرآن المجيد نوع ودرجة من أنواع ودرجات عدم النهوض للعمل بما جاء به من تعاليم وأحكام وهدي، ومن ثم يظهر الفساد مقترناً بجملة من الممارسات التي نهى عنها، من ذلك

= المنزل والمركب لم يتم سفره وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى الذي هو السلوك، ولا يتم ذلك حتى يبقى بدنه سالماً ونسله دائماً، ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما، وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما." انظر:

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **جواهر القرآن**، تحقيق: الشيخ محمد رشيد رضا القباني، بيروت: دار إحياء العلوم، ط٢، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٣٢.

تبديل الدين بدليل قراءة نافع وأبو عمر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر لقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٢٦] كل هؤلاء قرؤوا بضم الياء في "يظهر" وبنصب "الفساد"؛ أي يبدل دينكم ويكون هذا التبديل سبباً في ظهور الفساد.

ومن ذلك المعاصي واختلال الأحوال، كما في قوله تعالىٰ موجهاً خطابه لأصحاب النبي محمد ﷺ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [هود: ١١٦].

ومن ذلك التكذيب بالقرآن كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾ [يونس: ٤٠]؛ أي ثمة من يؤمن بالقرآن، وأنه من عند الله، ولكن يمنعه العداء ويعوقه خلق المكابرة عن التعبير عن هذا الإيمان فيكتمه في صدره وقلبه، ومن الناس من لا يؤمن بالقرآن تقليداً واتباعاً للكبراء. قال الإمام ابن عاشور: "وجملة ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ معترضة في آخر الكلام علىٰ رأي المحققين من علماء المعاني، وهي تعريض بالوعيد والإنذار، وبأنهم من المفسدين للعلم بأنه ما ذكر المفسدين هنا إلا لأن هؤلاء منهم، وإلا لم يكن لذكر "المفسدين" مناسبة. فالمعنىٰ: وربك أعلم بالمفسدين الذين هم من زمرتهم."[1]

ومن ذلك الاختلاف المذموم وعدم اجتماع الكلمة، وبيان ذلك أن أهل الإسلام إذا لم يتحدوا في مواجهة أهل الكفر لم تظهر شوكتهم ولم

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١١، ص١٧٥.

يتفقوا على رأي. وهذا ما سماه القرآن المجيد "فساد كبير" لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٣].

ومن ذلك إتلاف الأموال وسرقتها لقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨ - ٣٩].

ومن ذلك قتل النفس بغير حق لقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ومن ذلك التجسس الذي يقصده العدو على عدوه، وهو ما نفاه إخوة يوسف عن أنفسهم في سورة يوسف. قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف: ٧٣].

ومن ذلك قطع الأرحام، إذ قرنه الله تعالى بالفساد في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ٢٥].

ومن ذلك اقتران الفساد البدني بقتل النفس بغير حق لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] فالفساد في الأرض مقترن بقتل النفس بغير حق؛ لأن إزهاق الروح تهديد لأمن الناس فرادى وجماعات.

كما أن الفساد مقترن بالحرابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ...﴾ [المائدة: ٣٣].

ومن ذلك نفاق المنافقين الذين يفسدون ولا يشعرون بفسادهم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة: ١١ - ١٢]. فالمنافقون صنف من البشر يمارسون فساداً مضاعفاً؛ لأنهم لا يكتفون بممارسة أساليب الخداع والكذب، وإنما يضيفون إليها أساليب السفه والادعاء بكل ما يعنيه من تبرير وتبجح، وهكذا يقترن النفاق بممارسة فسادين؛ فساد في الأرض يلمسه الناس، وفساد في الشعارات يدركه علماء الخطاب، ولما كان المنافقون غير مخلصين في سريرتهم لله تعالى فقد تعذر عليهم الشعور بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الصلاح والفساد مستمد عندهم من الأهواء الذاتية، وغير قائم على المقاييس الموضوعية. وإزاء افتقارهم إلى ميزان موضوعي يعرف به الصلاح والفساد يجيء التعقيب القرآني، "التعقيب الحاسم والصادق: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة: ١٢]."[1]

وعلى كل حال فالإنسان، انطلاقاً من تكوينه الجسدي والعقلي واللساني الذي ركب منه، كائن كما أنه مستعد لارتكاب الصلاح هو كائن مؤهل لارتكاب الفساد. دليل ذلك قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٤٤.

٣٠]. لقد علموا أن هذا المخلوق مركب من استعدادات ذاتية قد تخرجه عن الجبلة والفطرة وتوقعه في العصيان، وقد لاحظ بعضهم أن التعبير في الآية جاء بالمضارع؛ لأنه يدل على التجدد والحدوث دون الدوام؛ أي يجعل منه الفساد تارة، وسفك الدماء تارة لأن الفساد والسفك ليسا بمستمرين من البشر.[١]

ب- الصلاح البدني والتفاعل الإيجابي:

التفاعل الإيجابي نوع ودرجة من النهوض والمبادرة إلى العمل بما اكتنزه القرآن المجيد من أحكام وتعاليم وهدي.[٢] ومن ثم اقترن الصلاح في الخطاب القرآني بالتوبة لأن صدقها مستمد من ممارسة الإصلاح. فآية صدق التوبة بالنسبة للعالم هو صلاحه المتمثل في بيانه وفي عدم كتمانه.

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٤.

(٢) الإيجابية مصدر صناعي يدل على نوع ودرجة من التفاعل مع ما تضمنه واكتنزه القرآن المجيد. نقول: أجاب ويجيب ويستجيب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وقال تعالى أيضاً: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، ومصدر فعل أجاب إجابة ومجاوبة. ونقول المجيب، وهو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى. لا ننسى أن القرآن المجيد طافح بطلب التفاعل الإيجابي وبالثناء على أصحابه؛ لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، فعلى سبيل المثال بعد أن ذكر الله تعالى ما حصل لإبراهيم وداود وسليمان، ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل، ويونس وزكريا ويحيى عقب بالثناء عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالخيرات هي المصالح، ويخالفها الشرور وهي المفاسد.

أعني إن توبة العالم مرتسمة في أمرين:

أولهما: كتمانه للحق واستئثاره بالصواب عن الناس.

ثانيهما: قدرته على تحمل تبعات التعبير الحر عن أفكاره الإصلاحية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

كما يقترن الإصلاح بالتوبة؛ لأن صدقها متمثل في نوعين من الانتقال؛ النوع الأول: انتقال من مرحلة الإنكار والكفر إلى مرحلة الإقرار والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٩]. والنوع الثاني: انتقال من مرحلة الإرجاف إلى مرحلة الإصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

إنّ آية صدق التوبة بالنسبة للحاكم هو ممارسة الإصلاح بالكف عن الظلم لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ

ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩] لا يكفي أن يتوقف الظالم عن ارتكاب الظلم، فهذا مجرد وقوف سلبي، نعم هو مطلوب، ولكن المطلوب أكثر هو الارتقاء إلى مستوى إيجابي يصعد من خلاله الحاكم التائب إلى مدارج الخير والصلاح. والدليل على ذلك في نظر الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن "النفس الإنسانية لا بد أن تتحرك، فإذا هي كفت عن الشر والفساد، ولم تتحرك للخير والصلاح بقي فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد. فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح؛ فإنها تأمن من الارتداد إلى الشر والفساد بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء."[1]

كما يقترن الصلاح بواجب التوجه الإرادي له، إذ هو فعل من الأفعال القلبية أو الباطنية لقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ولقوله عن الحكمين والزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]. فإذا حصل التنازع والتظالم بين الناس وجب إصلاح ذات بينهم. حصل هذا مثلاً عندما اختلف المسلمون في النفل وساءت أخلاقهم فيه فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١][2] وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٨٠.

(٢) النفل هو العطاء الذي يضاف إلى بعض المجاهدين المقاتلين زائداً على سهمه من الغنيمة، والغرض من ذلك تحفيزهم وتحريضهم وتشجيعهم على مزيد من بذل البلاء الحسن. يروى عن أبي أمامة الباهلي أنه قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: "نزلت فينا=

كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. ومن أمثلة هذا المظهر الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩ - ١٠].

صفوة القول أن إصلاح العمل البدني هو تدافع مزدوج، فمن جهة هو دفع لأسباب الفساد والمرض الذي قد يلحق الجسد بجلب أسباب السلامة البدنية، ومن جهة ثانية هو تفاعل إيجابي مع تعاليم وأحكام القرآن العملية.

ثالثاً: العمل التدبيري

تقتضي مهام الخلافة التي حمل الإنسان مسؤوليتها أن يدبر هذا المخلوق مسؤولية حياته في الأرض، والمطلوب أن يكون هذا التدبير صالحاً، وليس تدبيراً فاسداً كما قال ظن الملائكة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

= معشر أصحاب بدر، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلىٰ رسول الله ﷺ وقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين... فكان في ذلك تقوىٰ الله وطاعة رسول الله ﷺ، وصلاح ذات البين." انظر:

- الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج١١، ص١٤-١٥.

وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

لا يخفى أن الإنسان مدني بطبعه، كما يقول علماء الاجتماع، يتواصل مع بني جنسه بطرائق مختلفة من الملاطفة، والممازحة، وبأصناف متعددة من المحاورة والمحاسبة، كما أنه كائن اجتماعي يحتاج إلى غيره فيدخل معهم في صور من المعاهدة والملازمة التي لا تنأى في معظم الأحوال عن التهارج والتدافع والتمانع، ومن ثم ندرك المغزى من كون معظم الخطاب القرآني متجهاً إلى الفرد باعتباره جزءاً من كلٍّ كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، كما أننا ندرك انطلاقاً من هذه الحقيقة الاجتماعية والتواصلية المغزى من اتجاه معظم الخطاب القرآني إلى الإنسان الفرد باعتباره فرداً ينتمي إلى جماعة، كما في مجمل النداءات القرآنية من أمثال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾. فالمقصد من الخطاب القرآني أن يكون تدبير الإنسان الفرد، وتدبير المجتمع والأمة لهذه الحقيقة الاجتماعية تدبيراً صالحاً تبعاً للأمر الإلهي في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

لا ننسى أن القرآن المجيد جاء بجملة من الأحكام العملية لإصلاح العمل البدني للإنسان الفرد وللمجتمع والأمة، وهي الأحكام التي

اصطلح الفقهاء والأصوليون على تسميتها بالأحكام الشرعية الخمسة من وجوب وندب وحرمة وكراهة وإباحة؛ أحكام لا يصلح حال المجتمع الإسلامي إلا بها، نعم لا شك في ذلك، ولكن، وكما قال الإمام ابن عاشور: "تتفاوت مراتب الصلاح في الزيادة والنقصان مما يقبل الزيادة والنقصان منها، فالرجل الصالح ينقص من الأشياء المفضولة ليتفرغ إلى التوفير من الأشياء الفاضلة، وغير الصالح بعكس حاله. ومرتبة الواجبات والمحرمات لا تقبل زيادة ولا نقصاناً؛ لأن النقصان من الواجبات والزيادة من المحرمات عصيان."[1]

ولما كان المقام سيطول بنا لو رحنا نستقرئ الأحكام التشريعية والمقاصد القرآنية التي يكون على أساسها التدبير الإنساني للحياة المجتمعية تدبيراً صالحاً في مجالات الحياة العائلية والمالية والجنائية والسياسية[2] فإننا آثرنا أن نحصر اهتمامنا في ما تضمنته مادة صلح وفسد من معطيات، وفي إطار هذا المضمار نلاحظ أن العمل التدبيري، صلاحاً أو فساداً، مبني على التدافع بين من يملك السلطة وتدابيرها المختلفة، وبين ما يقتضيه الفعل الإصلاحي من تدابير في الإعمار والإنماء.

---

(١) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٧٧.

(٢) للتوسع في هذا، انظر:

- رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق.
- حامدي، **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، مرجع سابق، وخاصة في الباب الثاني والباب الثالث منها.

١ – العمل التدبيري الفاسد:

يظهر فساد التدبير في صورتين؛ الأولى: عسكرية والثانية: مجتمعية، فالصورة العسكرية متمثلة في ما يفعله الملوك عند سيطرتهم العسكرية على ممالك غيرهم لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

لما تلقت ملكة سبأ كتاب سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتبصرت بالأخطار التي قد تلحق بقومها، توجهت لمن حولها بنصيحة ثمينة مفادها: أن الملوك أو الحكام إذا دخلوا عنوة وقتالاً أفسدوا قراها، وذلك باستذلال أهلها، وإهانة قياداتها وأعيانها وأشرافها، فتحولوا وقتئذ أذلة. بكلمة أخرى يقترن الدخول العسكري بتخريب عناصر القوة القديمة وجعل قادة الأنظمة القديمة أذلة،[1] كما أن هؤلاء يبادرون إلى تغيير الأنظمة حتى تساير وتتناغم مع مصالحهم وأطماعهم. وقد ميز الإمام ابن عاشور في هذا المظهر بين ما وقع منه في ماضي الإنسانية وبين ما يمكن أن يحدث منه في واقعها المستقبلي فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ استدلال بشواهد التاريخ الماضي. ولهذا يكون "إذا" ظرفاً للماضي بقرينة المقام...

---

(١) قال الزمخشري: "قد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد في الآية، ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حراماً فقد كفر. فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين." انظر:

– الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٥٣.

وجملة ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ استدلال على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾."[1]

وأما الصورة المجتمعية؛ فتتمثل في المظاهر الآتية:

أ- الفساد البيئي:

يتمثل الفساد البيئي في ما يتحدث عنه القرآن الكريم من فساد البر والبحر من خلال قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١]. وقد تضاربت أقوال المفسرين في تحديد مظاهر الفساد التي تظهر في البر والبحر كأخذ السفن غصباً، والجذب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات وكثرة الموت، ومحق البركات وارتفاعها،[2] بل وصلت هذه الأقوال، وكما لاحظ الأستاذ عزة دروزة، إلى حد الغرابة كالقول بقتل هابيل، وملوحة مياه البحر بعد أن كانت عذبة، وغيرها من الأقوال.[3]

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٩، ص٢٦٣.

(٢) للتوسع في ذلك، انظر:

- الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ج٤، ص٥٨٢.
- ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٤٠ وما بعدها.

(٣) دروزة، **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٥٥.

والحق أن تعريف الفساد تعريف الجنس الذي يشمل كل فساد ظهر في الأرض بكل ما تتضمن من تراب وهواء ومياه وأنهار وأجواء... فكلها مما وجب على الفرد والبيئة الاجتماعية المحافظة عليه والعناية بمقدراته على اختلاف الظروف الزمانية والاعتبارات الجغرافية.[1] والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ تعنى الجزاء؛ أي جزاء لهم بسبب أعمالهم". واللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ للتعليل. قال الإمام ابن عاشور: "ودل قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على أنه سوء الأحوال في ما ينتفع به من خيرات الأرض برها وبحرها".[2] فساد البحر متمثل في تعطيل منافع البحر كقلة الحيتان، واللؤلؤ، والمرجان، وكثرة الزوابع التي تحول دون انتظام الأسفار. أما فساد البر؛ فيكون بفقدان منافعه، وحدوث مضاره، من ذلك حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وموت

(١) على هدي من هذا الشمول نفهم ما جاء في السنة النبوية من عناية شديدة بالزراعة والفلاحة، ومن حرص على طهارة الأماكن والمياه وعدم تلويثها ومن الإبقاء على الثروات الحيوانية. فمن النصوص المنقولة في ذلك: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس...، حديث رقم: ٢١٩٥.

ومن ذلك قوله ﷺ: "من أحيا أرضاً ميتة فهي له." انظر:

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، كتاب: السنن كتاب الخراج، باب: في إحياء الموات، ج٢، ص١٩٤، حديث رقم: ٣٠٧٣.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢١، ص١١٠.

الحيوان المنتفع به، وانتشار الجراد والحشرات والأمراض، وما تقذفه المصانع الكبيرة من نفايات سامة في المياه العذبة والمالحة التي تسبب حرمان الإنسان من الانتفاع من مياه الأنهار ومن أسماك البحار.

ب- فساد التناقض بين الشعارات المرفوعة والأعمال الممارسة:

ومن فساد التدبير ادعاء الإصلاح على مستوى الشعار، وتكريس الإفساد على مستوى الممارسة. فعلى سبيل المثال حكى القرآن المجيد عن فرعون وموقفه من رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]. كما حكى القرآن المجيد عن تناقض موقف المناققين: يدعون نظرياً الإصلاح من جهة، ويمارسون عملياً الفساد في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

ويدخل ضمن هذا المظهر من فساد التدبير؛ فساد المنافقين كما هو حال المنافق الذي مرض قلبه ولم يعالج أدوائه المتمثلة في الكذب والخوف والخداع لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. بمعنى آخر النفاق أصل فاسد يتولد عنه كثير من المفاسد ومن أبرزها: الكذب في الأقوال والخداع في الأعمال وهو كذب في الأفعال ومفسدة الخوف، فالكذب والخداع مفسدتان تصدران ممن يخاف إظهار حقيقة أمر ما، وتضمر كل مفسدة من المفاسد الثلاث خصلة من الخصال المذمومة.

فالكذب ينشأ عن البلَه؛ لأن الكذاب يعتقد أن كذبه يمكن أن ينسحب على الناس جميعاً، وهذا البَلَه من قلة الذكاء؛ لأن النبيه يعلم أن في الناس مثله وخيراً منه، والبله يوقع في مفاسد أعظم كالجهل بالحقائق وبمراتب الإدراكات العقلية، كالتوهم أو السفه، وهو خلل في الرأي. أما الخداع؛ فينشئ العداوة بين الناس بسبب شعورهم بخداع المخادع، ومن ثم تفضح جملة ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ سبب توغل المنافقين في الفساد، وهو "أن في قلوبهم مرضاً، وأنه مرض يتزايد مع الأيام تزايداً مجعولاً من الله فلا طمع في زواله."[1]

ت- فساد الانتماء:

من فساد التدبير فساد الانتماء إلى المفسدين وفساد الدعاء لهم، كما في حالة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد أدت به عاطفة الأبوة إلى نداء الله عز وجل كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥ - ٤٦]. فقد نزع الله

---

(١) قال بعض المفسرين: هي دعاء عليهم كقول جبير بن الأضبط:

تباعد عني فطحل إذ دعوته أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

لم يستحسن الإمام ابن عاشور هذا التفسير أولاً: لأنه خلاف الأصل في العطف بالفاء، وثانياً: لأن تصدي القرآن لشتمهم بذلك ليس من دأبه، وثالثاً: لأن الدعاء عليه بالزيادة ينافي ما عهد من الدعاء للضالين بالهداية في نحو قوله ﷺ: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون." انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٢٨٢.

تعالىٰ من خلال هذه الآية صفة الصلاح عن الدعاء الذي يقصد به نفع المفسدين، فالنجاة لا تكون إلا لمن انتمىٰ إلىٰ العقيدة الصحيحة، وبرهن علىٰ ذلك بالعمل الصالح.[1]

ث- فساد الولاء:

وهو الذي يشير إليه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٣] فالكفار، بحسب الآية الكريمة، لما كانوا متحزبين ومتساندين، يوالي بعضهم بعضاً ويناصر بعضهم بعضاً، فقد حذر الله تعالىٰ المؤمنين من التخلي عن ولائهم لبعض، ونصرة بعضهم بعضاً. فمن دون هذا الولاء تكون الفتنة فتنة في الأرض، بل ويكون بذلك أيضاً الفساد الكبير، ولا أكبر من أن يغلب أهل الكفر والفسوق والعصيان أهل الاستقامة والطاعة والإيمان. ودرء لهذه المفسدة تعين الاستجابة لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ج- الغـش:

ومن فساد التدبير الغش في المكاييل والموازين لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟

---

(١) قرأ الكسائي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴿٤٦﴾﴾ عمل علىٰ صيغة الماضي، وغير بالنصب. والمعنىٰ أن ابنك عمل عملاً غير صالح؛ أي أشرك وكذب. انظر:

- الرازي، **التفسير الكبير** «**مفاتيح الغيب**»، مرجع سابق، ج١٨، ص٣.

ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦]. فقد كرر في الآية الأمر بالوفاء في المكاييل والموازين؛ لأن النقص في المكيال والميزان، مفسدة من المفاسد العظيمة التي يجمع صاحبها بين خصلتي السرقة والغدر.(١)

الغش في المكاييل والموازين يكون الصلاح فيهما بالعدل والقسط، ولا يكون ذلك إلا بالإيفاء فيهما لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. فالمطلوب هو استفراغ الوسع في الإتمام والإيفاء، أما الخطأ فيهما؛ فهو خارج طاقة الإنسان، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فالذي يؤاخذ عليه هو القصد إلىٰ الغش، وعلىٰ أصحاب هذا القصد وقع الوعيد لقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ - ٦].

حـ- العلـو:

من فساد التدبير العلو علىٰ الخلق لقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، ولقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٢، ص١٣٧.

أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

العلو، عند الرازي هو "قوة الملك... ثم فصل الله تعالىٰ بعض ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ أي يشيعونه علىٰ ما يريد."[1] وذهب الإمام ابن عاشور إلىٰ تحديده بالتكبر عن الحق واستشعار صاحبه أن نفسه أعلىٰ موضعاً حتىٰ أنه لا يساويه أحد. فالذي يستعلي يشعر بمعنىٰ التفوق علىٰ الآخرين دون وجه حق من دين، أو شريعة، أو مراعاة حق الآخرين، فهذا وجه من وجوه فساد التدبيـر؛ لأن المستعلي يتكبر فلا يعبأ في تصرفاته بصيانة مصالح الآخرين، وإنما يتبع ما يمليه عليه دستور شهواته وما تفرزه أنانيته البغيضة، وقد بلغ هذا الوجه من فساد التدبير بفرعون إلىٰ أن جعل نفسه إلهاً، وأنه ابن الشمس. وجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تعليل لجملة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وليس كل علو مذموم علىٰ الإطلاق؛ لأنه قد يترجح العالم علىٰ الجاهل، ويفضل الصالح علىٰ الطالح، ويتميز الذكي عن الغبي، كما قد يترجح الأمير والحاكم علىٰ المأمور والمحكوم، ويترجح القاضي علىٰ المتخاصمين، وعلىٰ كل حال فإن أعدل الرجحان كما قال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما كان من قبل الدين والشريعة كرجحان المؤمن علىٰ الكافر، والتقي علىٰ الفاجر، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ

(١) الرازي، **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، مرجع سابق، ج٢٤، ص٢٠٥.

ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].[1]

وعلى كل حال يؤدي العلو إلى مفاسد متفاوتة من حيث آثارها، وهي:

- مفسدة التكبر والتجبر:

يتولد من رحم التجبر مفاسد احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاملتهم، واعتبارهم أدوات ومجرد أشياء يتوسل بها لتحقيق شهوات المتكبر وقضاء أوطار المتجبر. أما التكبر، خاصة تكبر الراعي أو المسؤول عن شؤون الناس أو المسؤول عن شأن من شؤونهم، فهذا يفضي إلى دحض الحقوق والنظر بعين الاحتقار إليهم والإمعان في ابتزازهم.

لقد تكبر قارون بعلمه وبماله، وهذا فساد فكري ومالي لقوله تعالى عن قارون: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦] ولهذا كانت عاقبته كما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

كما تكبر فرعون بملكه وقوته الزراعية والمالية، وهذا من الفساد في التدبير السياسي لقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، ولقوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٠، ص٦٦.

يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ [القصص: ٣٩].

المتكبر، لا يعبأ بجلب مصالح الناس ولا بدفع المفاسد عنهم، وإنما يهمه في المقام الأول، كما قال ابن عاشور: أن "يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث للرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته.[1] وهذه المفسدة هي جماع المفاسد وأمها إذ ينشأ عنها مفسدتان:

- مفسدة التفريق إلى شيع:

أي جعل أهل المملكة الواحدة فرقاً، بعضها يقرب الملك الفاسد إليه، والبعض الآخر يبعده، والغرض من ذلك أن تتطاول الفرق المقربة على الفرق المبعدة، وفي وسط هذه البيئة المسمومة بالتحاسد والتباغض تكون النميمة والوشايات الكاذبة، أما الملك الصالح؛ فيأخذ مسافات متساوية مع الجميع، فالناس عنده بـ "منزلة الأبناء من الأب، يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية."[2]

- مفسدة الاستضعاف:

معناه التمييز بين الطوائف. بعضها يكون مهضوم الحقوق تناله المغارم، والبعض الآخر منعم في المغانم، وكل ذلك من التكبر على الخلق،

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٠، ص٦٨.

(٢) المرجع السابق، ج٢٠، ص٦٩.

ولهذا ذكر القرآن المجيد بجانب مفسدتي العلو والاستضعاف مفاسد أخرىٰ كالرق وذبح الأبناء واستحياء النساء.

يفضي استقراؤنا لمظاهر فساد التدبير في القرآن المجيد إلىٰ القول بأنها منتظمة في عنصر مشترك ينتظم خيوطها جميعاً، يتعلق الأمر بعنصر الفساد الأرضي. بكلمة أخرىٰ لئن تعددت ألوان فساد التدبير فإن عنصر الفساد الأرضي هو ما يجمع معظمها، وعلىٰ كل حال نهىٰ القرآن المجيد عن الفساد في الأرض في مواضع متعددة منها:

قوله تعالىٰ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وقوله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨]، ومنها قوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، ومنها قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]،[1] ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٥]، ومنها قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومنها قوله: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ أي لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرىٰ ولم يكن من فيهما جميعاً

(١) لا شك أن الذي يبغي الفساد في الأرض يبتغيه ويتوسل إليه بوسائل متعددة كالظلم، والغصب، والحرمان، وغير ذلك من الأدوات والإجراءات.

لله وحده، لتطرق الفساد إليهما فاختل نظامهما الذي خلقتا به، والمقصود بالفساد، انطلاقاً من المقام الذي سيقت في الآية، هو اختلال نظام الأرض والسماوات بحيث لا ينتفع بهما، وهكذا إنّ "فساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منسقتي النظام، بحيث يبطل الانتفاع بما فيهما."[1]

نفهم، وانطلاقاً من كل المظاهر السالفة، المغزى من الأمر الإلهي بالاعتبار من عاقبة المفسدين كقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: ١٠٣]. وقوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤]. لقد سيق النهي عن الفساد في مقام التضرع إلى الله تعالى والانكسار بين يديه سبحانه لقوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال الأستاذ سيد قطب: "النفس التي تتضرع وتخشع... لا تفسد في الأرض."[2] ومن ثم فالجدير بالمتضرع والأليق بالمنكسر أن لا يعتدي على سلطان الله تعالى فيفسد في الأرض بعد أن أصلحها الله تعالى، فهذا نهي عام يشمل أموراً متعددة، وفي طليعتها الشرك

---

(١) لصلاح السماء مظاهر كنظام كواكبها وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها... ويتجسد صلاح الأرض في مهدها للسير، وفي إنباتها للشجر والزرع، وفي اشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب.

– ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٧، ص٤٠.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٨، ص٥٢٨.

بالله؛ لأنه إفساد للأرض بعد أن أصلحها الله تعالىٰ ببعثة الرسل وبتقرير الشرائع المتتابعة. ومما يفسد الأرض بعد إصلاحها عدم استعمال العقول، وعدم صيانة الأنفس، وارتكاب الظلم والقهر والاستبداد.[1]

وهكذا إن البعدية في قوله تعالىٰ: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بعدية حقيقية؛ لأن الأرض خلقت من أول أمرها علىٰ صلاح، أعني أن الله تعالىٰ خلقها علىٰ نظام صالح لقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]. وعزز هذا النظام بقوانين وضعها علىٰ ألسنة المرسلين والصالحين والحكماء.[2] وعلىٰ كل حال إن فساد التدبير في الأرض، متعدد ومتنوع؛ منه تصيير الأشياء الصالحة وتحويلها إلىٰ أشياء مضرة، كالغش في الأطعمة، ومنه إفساد الأنظمة، كالفتن والجور، ومنه إفساد المساعي، كتكثير الجهل وتعليم الدعارة وتحسين الكفر ومناوأة الصالحين المصلحين.

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير** «**مفاتيح الغيب**»، مرجع سابق، ج١٤، ص١١٩-١٢٠. وانظر أيضاً:

- ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، مرجع سابق، ج٢، ص٤١٠.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع بيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، (د. ت.)، م١٢، ص٤٨٧.

قال ابن القيم: "ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله. وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلىٰ غير الله ورسوله". وقال الشيخ رشيد رضا: " وأشد الفساد الكبر والعتو الداعيان إلىٰ الظلم والعلو." انظر:

- رضا، **تفسير القرآن الحكيم** «**تفسير المنار**»، مرجع سابق، ج٨، ص٤٦١.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، جزء: ٨ من القسم الثاني، ص١٧٥.

ويمكن أن ندرج في صنف هذه المظاهر ما نسمعه ونقرأه ونشهده من فساد إداري ومالي وسياسي... فالإثراء دون جهد إنتاجي ودون مراعاة شروط المنافسة وانعدام النزاهة وتكافؤ الفرص، وتسلق مناصب المسؤولية السياسية وغير السياسية عن طريق اعتماد وانتهاج أساليب التزوير والخداع لإرادات الناس واختياراتهم في الانتخابات والاستفتاءات المختلفة، واستغلال السلطة في الإثراء دون احترام لإرادة دافعي الضرائب، كلها من أنواع الفساد التي تندرج ضمن ما يسمى في القرآن المجيد بالفساد في الأرض.

إن فساد التدبير بكل ما يحمل عليه من قتل وسفك للدماء وهدم وخراب وتدمير واستبداد وعلو وتكبر وتطفيف للمكاييل والموازين مناقض لما يستلزمه العمران من حياة آمنة ومن نهوض بأسباب الحياة المادية والفكرية والثقافية، ولهذا حق لأبي حيان الأندلسي أن يجعل الفساد المتعدد تخريباً للأرض ومعاندة لإرادة الله تعالى في الإعمار.[1]

٢- العمل التدبيري الصالح:

يرتسم التدبير الصالح في جملة من المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية والإنسانية، من ذلك ما ورد في سورة الكهف من قصة الغلامين الذين أقام الخضر على كنزهما جداراً واستشكل ذلك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا

(١) قال أبو حيان : "الفساد ضد الصلاح، وهو معاندة الله في قوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]" انظر: - أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٢، ص١١٨.

فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف: ٧٧]، وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢] فهم بعض المفسرين من قصة الغلامين أن الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تصرف في الجدار عن إرادة الله التي اقتضت اللطف باليتيمين جزاءً لأبيهما على صلاحه، وفي ذلك قال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لعله سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصد أو بمصادفة."(١)

ومن صلاح التدبير المحافظة على مصلحة اليتامى فالظفر بها متوقف على الفهم السليم لنوعية حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ولنوعية ما تحكمها من قوانين وأعراف وتقاليد وممارسات، فعلى سبيل المثال النشاط الاقتصادي السائد عند العرب عند نزول القرآن هو أعمال الزراعة والصيد والإغارة، وكلها أعمال تنقطع بموت ممارسها، فإذا مات وترك أبناءً صغاراً لم يستطيعوا أن يكسبوا، كما كان يكسب آباؤهم، يضاف إلى هذا أن الوضع المجتمعي العربي وقتئذ يعطي لكبير العائلة سلطة كبيرة تجعل المال بيده، إذ نادراً ما نجد لصغير مالاً.

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٦، ص١٤.

نفهم، انطلاقاً من هذا المعطى، أن وصف اليتم عند العرب ملازم لمعنى الخصاصة والإهمال والذل. وندرك أيضاً، وانطلاقاً من هذا الواقع، مغزى أن يمتن الله على نبيه الكريم محمد ﷺ بأنه حفظه في حال اليتم مما ينال اليتامى في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦]. وهكذا يحتاج اليتامى، في ظل هذا الإطار والسياق المجتمعي، إلى من يحفظ ثروتهم ويرعى شؤونهم المختلفة. ومن ثم دعا القرآن إلى النظر في مصلحة اليتامى في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. كما شرع أحكاماً تحفظ تلك المصالح: من ذلك أن لا يقرب إلى أموالهم إلا بالتي هي أحسن لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠].

لقد أدى الخوف الشديد من هذا الوعيد ببعض الناس إلى ترك التصرف في أموال اليتامى واعتزالهم.[1] والمقصود بإصلاح اليتامى عمل كل ما من شأنه إصلاحهم من النواحي الاعتقادية والتعليمية والبدنية والنفسية والمالية والعقلية، ولهذا ندرك المغزى الاندماجي من استعمال القرآن المجيد لكلمة ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾، فالمقصد الشرعي هو بناء عملية

(١) يراجع روايات كثيرة في ذلك عند:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٤.

تواصلية تفضي إلى تنمية قدرات اليتامى الفكرية والمالية وصقل مواهبهم المختلفة وتطوير كفاءاتهم وإبداعاتهم المتعددة، ولا يكون ذلك إلا بدمج مؤسسي لهم في نسيج المجتمع وفي بنياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

ومن صلاح التدبير السعي إلى الصلح بين الزوجين باعتباره وسيلةً من وسائل إصلاح العائلة. يبدو ذلك في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، والراجح من الأمر في الآية أنه للوجوب؛ لأن أمر إصلاح العائلة من المقاصد القرآنية التي تتعاضد مع آيات متعددة: منها قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. ومنها قوله أيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

الثانية: قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨]. والصلح هنا تعريف للجنس، وليس تعريفاً للعهد؛ لأن المقصود من الآية إثبات أن ماهية الصلح خير للناس، ليس المقصود أن إجراء الخلع خير من استمرار النزاع بين الزوجين، وإنما المقصود هو أن ماهية الصلح بصفة عامة أيّاً كان مجاله وأيّاً كان موضوعه هو دائماً فيه الخير والمنفعة. قال الإمام محمد

الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد دلت الآية على شدة الترغيب في هذا الصلح بمؤكدات ثلاثة، وهي: المصدر المؤكد في قوله: ﴿صُلْحًا﴾، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، والإخبار عنه بالمصدر أو بالصفة المشبهة فإنها تدل على فعل سجية."[1]

ومن صلاح التدبير وجود نساء صالحين في مقابل وجود رجال قوامين، فقد جاء وصف النساء بالصلاح في سياق قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] فتأسيساً على وصف الصلاح استحق النساء أن تفصَّل أحوالهن كما استحق الرجال أن يفضلوا بقوامتهم عليهن. فالفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ للفصيحة؛[2] "أي إذا كان الرجال قوامين على النساء فمن المهم تفصيل أحوال الأزواج منهن... ومنها وصف الصلاح."[3]

ومن صلاح التدبير الحفاظ على الحقوق في الوصايا والأوقاف والولايات وعدم تعرضها للضياع لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا

---

(١) المرجع السابق، ج٥، ص٢١٧.

(٢) الفاء الفصيحة هي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه سبباً للمعطوف من غير تقدير حرف الشرط، وسميت فصيحة؛ لأنها تفصح عن المحذوف وتفيد بيان سببيته. ولها أمثلة كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٧٠]. الفاء في قوله تعالى ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ هي الفاء الفصيحة، والتقدير: فجاءهم محمد ﷺ بالحق فكفروا به.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٠.

أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: ١٨٢].

ومن صلاح التدبير التشبع المستمر بالمصالح التي تتمثل في نفع البشر، فهي البوصلة أو الكعبة التي تحدد سير الفقيه والمفكر في الإسلام هذا أمر مبدئي حتىٰ ولو تعلق الأمر بالبر باليمين وبالأدب مع اسم الله تعالىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. ولهذا كان القول المأثور: "الامتثال مقدم علىٰ الأدب". ومن ثم نفهم سنة الرسول ﷺ في قوله: "إني لا أحلف علىٰ يمين، فأرىٰ غيرها خيراً منها إلا كفَّرت عن يميني وفعلت الذي هو خير."[1]

إن الأدب مع الله مصلحة مقصودة متمثلة في تعظيم اسمه، كما أن نفع الخلق مصلحة مقصودة متمثلة في إتيانهم مصالحهم، وقد تعارضت المصلحتان في قصة أيوب مع امرأته، حيث لم يأمره الله تعالىٰ بأن يبر بيمينه فيضربها مائة جلدة، وإنما أرشده إلىٰ أن يأخذ ضغثاً من مائة عصاً فيضربها به. فلئن حقق البر بالقسم عن طريق الضرب مصلحة الأدب مع اسم الله الأعظم؛ فإنه يلحق الضرر بالخلق، وهو ما لم يرضه الله تعالىٰ فأرشد الله تعالىٰ نبيه أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ مسلك يجمع عن طريقه بين البر بقسمه وبين عدم إلحاق الأذىٰ به وبامرأته. قال الإمام ابن عاشور: "هذا وجه من

(١) أبو داود، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب: الأيمان والنذور، باب: الرجل يُكفِّر قبل أن يحنث، ج٢، ص٢٤٨، حديث رقم: ٣٢٧٦.

التحلة أفتى الله به نبيه، ولعل الكفارة لم تكن مشروعة، فهي من يسر الإسلام وسماحته، فقد كفانا الله ذلك إذ شرع لنا تحلة اليمين بالكفارة، ولذلك صار لا يجزئ في الإسلام أن يفعل الحالف مثل ما فعل أيوب."[1]

ومن صلاح التدبير الانفتاح على الغير كالسعي إلى إصلاح ذات البين، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال: ١] لا ننسى الأهمية التي أعطاها القرآن المجيد لإصلاح ذات البين خاصة في الأوقات العصيبة، ومنها أوقات الحروب؛ لأن غياب هذا الإصلاح مؤشر على "فتنة" تعم أفراد الهيئة الاجتماعية جميعهم؛ أعني أن الفتنة لا يمس شرها وفسادها الظالمين فحسب، وإنما تمتد آثارها إلى غيرهم لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: ٧٣]. ولهذا أمر الله بالإصلاح بين المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٠]. بل حصر القرآن المجيد خير النجوى في أمور الإصلاح بين الناس، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. ومن صلاح التدبير كف السفهاء الذي يبذرون ويسرفون عن التصرف في الأموال لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء: ٥] فهي

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٠.

أموال جعلها الله تعالىٰ، قوام معايش الناس ومصالحهم.[1]

يفضي استقراؤنا لمظاهر صلاح التدبير في القرآن المجيد إلىٰ القول بانتظام خيوطها في عنصر الإصلاح الأرضي؛ لأن المطلوب من الإنسان المستخلف هو إصلاح الأرض لا إفسادها؛ إصلاحها يكون بتهيئة الإنسان لكي يمارس وظائف الخلافة التي نص عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فكلها مظاهر تظهر فيها ثمرات الإصلاح الأرضي ويبدو ذلك في وراثة الأرض، وفي الحياة الطيبة، وفي حب الناس لأهل الصلاح بصفة عامة.

تبدو ثمرة وراثة الأرض في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقد اختلف المفسرون في تحديد المعنىٰ المقصود من ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ التي سيرثها الصالحون من المؤمنين، منهم من قال: هي أرض الجنة، ومنهم من قال: هي أرض الدنيا، ومنهم من قال: هي الأرض التي وعدها الله تعالىٰ لبني إسرائيل لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]. ومنهم من حاول التوفيق بين هذه الآراء الثلاثة التي

(١) للتوسع في هذه النقطة، انظر:

- رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق، ص٢٩٦.

ذكرها الطبري فقرر أن أرض الجنة هي من نصيب المؤمنين في الآخرة، فهم قد نهضوا بالإصلاح في الدنيا، سواء تحقق لهم الفوز فيها أم لا، كما قد يكون لأسباب خارجة عن إرادتهم، قد يكون لأسباب ذاتية كعدم سلامة قلوبهم، وإن في إطلاق اسم الأرض كما قال الإمام ابن عاشور: ما "يصلح لإرادة أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح."[1]

وتبدو ثمرة الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]. ومعنى "الحياة الطيبة" الحياة الحسنة والخيرة التي تتجسد في الرضى بما قسم الله، وفي حسن الأمل بالعاقبة، وفي العافية، وفي عزة الإسلام في النفوس،[2] وفي ود الناس... فعلى سبيل المثال يتمثل ود الناس في صورتين:

الصورة الأولى: أن يكون للمؤمن قوة الألفة مع إخوانه المؤمنين؛ لأن التآلف هو الذي ينبغي أن يسود علاقات المؤمنين بعضهم مع بعض، إذ المفروض فيهم أن يكونوا إخوة متحابين، لقوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقوله

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٧، ص١٦٢.

(٢) قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: "وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عباده المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم، ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا." انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٧٣.

ﷺ: "خير الناس أنفعهم للناس..."[1]

الصورة الثانية: أن يكون للمؤمن من قوة الجاذبية الشخصية التي تساوي أو تفضل جاذبية الجاه والمنصب والموقع المالي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي. وقد عبر القرآن المجيد عن ذلك بالود في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي سيحبب الله تعالىٰ الآخرين فيهم، وسيجعل لهم حباً في قلوب أهل الإيمان. وقد بين الزمخشري ذلك الود في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي سيحدث لهم في القلوب مودة، وسيزرع لهم فيها من غير تودد منهم، ولا تعرض للأسباب التي توجب الرد، ويكتسب بها الناس مودات القلوب، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بميزة أو غير

(١) صيغ بألفاظ مقتبسة من حديث نبوي هو "خير الناس من ينفع الناس"، وهي رواية قال عنها الشيخ العجلوني: "لم أر من ذكر أنه حديث أو لا... لكن معناه صحيح." انظر:

- العجلوني، إسماعيل بن محمد. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، صيدا: المكتبة العصرية، ط١، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، ج ١ ص ٤٥٠.

و"المؤمن ألف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. وخير الناس أنفعهم للناس." انظر:

- بدران، عبد القادر بن أحمد. **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، بيروت: دار المسيرة، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج٣، ص٢٢.

- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ج١٦، ص١٢٨، حديث رقم: ٤٤١٥٤.

ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء، اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانتهم أو منزلتهم.[1]

وإذا تأملنا مظاهر التدبير الصالح السابقة وجدناها متعاضدة مع مفاهيم العبادة والإعمار، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] والدلالات الإصلاحية لمفهوم العبادة والإعمار أو الاستعمار عند المفسرين تعز عن الحصر.

من ذلك ما ورد عند الألوسي في قوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ؛ أي جعلكم عمارها وسكانها، فالاستفعال بمعنى الإفعال. يقال: أعمرته الأرض؛ أي أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وحفر أنهار وغرس أشجار وغير ذلك.[2] ومن ذلك ما نقله القرطبي عن زيد بن أسلم أنه قال: "أي أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وغرس أشجار."[3]

ومن ذلك ما قاله ابن عاشور في آية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ ...﴾: "أنه المستغني غنى مطلقاً فلا يحتاج إلى شيء، فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له، ولكن لعمران الكون، وإجراء نظام العمران باتباع الشريعة التي

---

(١) الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ج٤، ص٦٠-٦١.

(٢) الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج١٢، ص٨٨.

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٩، ص٥٦.

يجمعها معنى العبادة."[1] وأيضاً قوله في آية: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ الاستعمار؛ أي الإعمار، جعلكم عامريها، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والشجر والزرع؛ لأن ذلك يعد تعميراً للأرض، حتى سمي الحرث عمارة؛ لأن المقصود منه عمر الأرض."[2]

حاصل القول في مظاهر الإصلاح التي يكتنزها القرآن الكريم أنها تكشف نوع البناء القيمي[3] الذي يستهدفه الدين الإسلامي الذي اختصره الرسول الكريم محمد بن عبد الله في كلمته الجامعة: "بعثت لأتمم حسن الأخلاق."[4] وبقدر ما يمثل هذا البناء الباعث الذي يبرر وربما

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٧، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ج١٢، ص١٠٨.

(٣) يعني لفظ " القيمة" في اللغة العربية القدر أو المقدار المعنوي لأمر ما أو الثمن النقدي المالي أو المادي للمتاع وللسلعة. ويدل في الاصطلاح على معاني متعددة تختلف بحسب المجالات التي يرد فيها. يدل في علم الاقتصاد المعنى المالي للثروة فيميزون بين قيم الإنتاج وقيم الاستهلاك، وفي المجال الفلسفي تفيد القيمة المعنى الخلقي الذي يستحق أن يتطلع إليه المرء بكليته ويجتهد في الاتيان بأفعاله على مقتضاه. للتوسع انظر:

- قنصوه، صلاح. **نظرية القيمة في الفكر المعاصر**، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨١م، ص٦.

- عبد الرحمن، طه. "تعددية القيم ما مداها؟ وما حدودها؟"، **مجلة قضايا إسلامية معاصرة**، العدد ٢٠-٢١، ٢٠٠٢م، ص٢٣١.

(٤) الأصبحي، أبو عبد الله مالك بن أنس. **الموطأ**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، كتاب حسن الخلق، ج٢، ص٩٠٤، حديث رقم: ١٦٠٩.

وجاء في الجامع الصغير للسيوطي: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق." وقد وفق=

يفسر إقدام الإنسان على الفعل فإنه يعني جملة الأوصاف المصلحية الذي نصف بها هذا الفعل أو ذاك من الأفعال الإنسانية. وأهم ما في هذا الأوصاف المصلحي بعدها الأخلاقي الذي هو الأصل في كل صلاح وهو الجذر في كل مصلحة، ومن تم طفح القرآن الكريم بالحث على تكوين هذا البناء القيمي وتربية الناس على الاستقامة على مقتضياته العملية، والآيات في ذلك عديدة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].(١)

إن العمل الصالح في القرآن الكريم عمل قيمي أخلاقي مرتسم في ثلاثة أبعاد: بعد العمل النفساني وبعد العمل البدني وبعد العمل التدبيري، وكلها أبعاد لا تخفى أهميتها وخطورتها خاصةً ونحن نعايش خطر أخلاقيات الأنانية بسبب آفاتها المدمرة، أخلاقيات لا يهم أصحابها إلا المصلحة الفردية وحب الذات الشخصية.

= الشاطبي توفيقاً كبيراً عندما قال: "الشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق." انظر:

– الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٧.

(١) للتوسع في هذه النقطة. انظر:

– الحسني، إسماعيل. **الاختلاف والتفكير في القرآن الكريم**، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م)، ص١٦٢.

الخاتمة

أفضى بي البحث في مفهوم الإصلاح من خلال محاولة حصر أسبابه، وضبط مظاهره إلى جملة من الخلاصات أعرضها على النحو الآتي:

- إن مفهوم الإصلاح الذي ينطوي عليه القرآن المجيد بمثابة الثمرة التي تنشأ عن التدافع والتوسط، ولهذه الثمرة مظاهر في الاعتقاد والتفكير والعمل، ومن ثم يمكننا، انطلاقاً من تلك الأسباب وهذه المظاهر، أن نتطلع إلى تقديم تعريف محدد لمفهوم الإصلاح في القرآن المجيد.

- تفتقر معظم التعريفات التي قدمها الباحثون والعلماء لمفهوم الإصلاح إلى التمكن من مستويين أساسيين يكتنزهما هذا المفهوم: مستوى الأسباب المفضية للصلاح أو المؤدية للفساد، ومستوى المظاهر التي يتجسد فيها كل من الصلاح والفساد.

- لقد أفضى بنا تتبع هذين المستويين إلى أن الإصلاح في القرآن المجيد بنية مركبة من المظاهر والأسباب، فهو بنية مركبة من مظاهر اعتقادية وتفكيرية وعملية يشكل مظهر إصلاح الاعتقاد نواتها الصلبة؛ لأنه يتفرع عنه مظاهر الإصلاح التفكيري والعملي. بعبارة أخرى إن إصلاح الاعتقاد والتفكير والعمل مظاهر متمايزة يمكن فصل

بعضها عن بعض، نعم لا شك في ذلك، ولكنها مترابطة فيما بينها؛ لأن الإصلاح التفكيري إذا كان هو أساس الإصلاح العملي فإن الإصلاح الاعتقادي هو أساس الإصلاح التفكيري، ومن ثم كان الإصلاح الاعتقادي هو أساس الإصلاحين التفكيري والعملي.

- يرسخ الإصلاح الاعتقادي لعقلية تركن للدليل، وبذلك تجعل تفكير صاحبها متشبعاً بمبادئ النظر والتثبت والموضوعية والحجية. أما الإصلاح العملي فمتعدد: فمنه ما هو نفساني يتجه إلى تزكية الانفعالات الداخلية والأخلاق الباطنية في ضوء مكارم الأخلاق القرآنية، ومنه ما هو بدني يتجه بما تجترحه الجوارح إلى خدمة السلامة الجسدية للإنسان من جهة، وإلى التفاعل الإيجابي مع التعاليم والأحكام القرآنية من جهة ثانية. ومنه ما هو تدبيري يروم جلب المصالح المتعددة ودرء ما يناقضها.

- تنتظم مظاهر الإصلاح القرآني في بنية متماسكة من الأسباب والمظاهر يماثل تماسكها تماسك الجسد السليم من الأمراض، فكما أن هذا الجسد يتهدده المرض إذا تداعى له عنصر مخرب لبنيته ولتماسكها، فإن الإصلاح المقصود في القرآن المجيد يتهدده أيضاً الفساد بمجرد ما يخترق بنية مظاهره وأسبابه عنصر من عناصر الإفساد الاعتقادي أو التفكيري أو العملي فيقع في مهاوي التطرف أو الجمود أو التناقض.

- تكشف الدراسة السببية الكيفية التي طرح ويطرح في إطارها القرآن المجيد قضية الإصلاح، ففعل الإصلاح نتيجة يفضي إليها سلوك منهجي قوامه التدافع والتوسط في مقابل الجمود والتطرف. وانطلاقاً من هذه العلاقة السببية كان هذا الفعل فعلاً إنسانياً ومركباً ومشوباً بصفة عامة بالتقصير والنقص؛ لأن الله تعالى ذيل خطابه إلى الصالحين بوصف الأوبة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٥]. ندرك، انطلاقاً من ذلك التقصير وهذا النقص، واقع بنية الإصلاح؛ لأنه مرت على تاريخها تجارب متعددة عرف أثناءها إرسال الله تعالى سلسلة من الأنبياء والرسل التي أرشدت الناس إلى ما هو صالح وحذرتهم مما هو غير صالح.

- يمثل الواقع المعاصر شاهداً أمثل على هذا الفهم المنهجي لمفهوم الإصلاح في القرآن المجيد. فالفساد الأخلاقي والسياسي والإداري والاجتماعي والمالي في وقتنا الراهن هو فساد مترابط ومتداخل مع ظواهر الإجرام في المجتمع ومؤسساته المختلفة. ليس الفساد محصوراً في الرشوة وسرقة المال العام والمحسوبية والزبونية والظلم وأصناف أخرى من الأفعال الفاسدة، ولكنه منظومة من صفات الرذيلة أو الشر أو السوء أو الغبن التي تسحق المجتمع وقيمه، وعندما تترسخ هذه المنظومة في الذهنيات وفي العقول يصبح الاعتياد على الفساد سنة أو نهجاً في العيش، وفي التعاملات المالية

والاقتصادية والسياسية.

- بسبب ما تراكم من فساد في تاريخنا أصبح الفساد نسقاً لا يمكن مواجهته إلا بفهمه أولاً كبنية متماسكة في عناصرها ومترابطة في مكوناتها ولا يمكن مواجهته إلا بتناول بنية بديلة عنه تمتلك مكونات مستقلة عنه تربط بينها علاقات مترابطة ومنسجمة ومتساندة. وفي نظري لا بد من الاستناد إلى هذا النوع من الفهم المنهجي للإصلاح إذا أردنا أن ننتج خطاباً إصلاحياً قرآنياً يخرجنا من آفات اليأس من إصلاح ما فسد من واقعنا حتى كاد بعضنا أن يسلّم بأن مكافحة الفساد في عالمنا العربي تشبه التنكر للقوانين العلمية.

- يخرجنا فهمنا المنهجي للإصلاح من متاهات اليأس والقنوط، فيجعلنا مرتبطين دائماً بآفاق التفاؤل والثقة في المستقبل، يعلمنا القرآن الكريم أن الإنسان الفرد الصالح، والمجتمع أو الأمة الصالحة، كل منهما يجهد ذاته في السعي إلى الإصلاح واكتسابه، لكن إذا لم يوفق إليه بتمامه هل يستشعر خيبة الأمل؟ ليس من الحكمة العملية ذلك، فما عليه إلا الإقرار بواقع نتائج سعيه، ثم محاولة الكرة مرة أخرى.[1]

(١) ولهذا يغفر الله تعالى لكل ساع إلى الإصلاح قد يقع بسبب ضعف مهارته في مهاوي التقصير عن نيله أو نيله بتمامه فهذا من الحكمة، ولله دَرُّ الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما حدد الحكمة تحديداً مصلحياً بقوله: "علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم=

- الإصلاح، انطلاقاً من الوعي الدقيق بأسباب تحصيله وإنجازه مرتبط أولاً وأخيراً بإرادة إنجازه وتحقيقه؛ لأن صاحبه يدرك أن عليه مهام تجاوز عوائقه الداخلية وموانعه الخارجية، ومن ثم يجب، قبل أن نجسد الإصلاح وقبل أن نظهره في اعتقاداتنا وفي نفوسنا وفي أعمالنا أن نكون على بال من طبيعة وحقيقة العوائق التي تعترضه، أعني أن الظفر بالإصلاح باعتباره بنية من الأسباب والمظاهر التي لها جميعاً تاريخ يقتضي الوعي الدقيق بتشابك وتداخل عناصر واقع الإصلاح، سواء أكانت من قبيل الموانع التي تعوقه، أم كانت من قبيل العوامل الإيجابية التي تدفع إليه، فعلى سبيل المثال إن الإصلاح الذي تتطلبه أوضاعنا الراهنة لن يكون له معنى -كما صور الأستاذ محمد عابد الجابري رَحِمَهُ ٱللَّهُ- على صعيد "السيادة" ومتطلبات حفظها، كما على صعيد السلطة ومتطلبات عدالتها، إلا إذا اقترن بإبعاد كلٍّ من: دور "الخارج" الذي يعني

= إصلاحاً مستمراً لا يتغير." انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤، ص٣٢٧.

وقال أيضاً في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٥] "التقدير: إن تكونوا صالحين أوابين إلى الله فإنه كان للصالحين محسناً، وللأوابين غفوراً." انظر:

- المرجع السابق، ج١٥، ص٧٥.

والحق أننا نفكر في صلاح شؤوننا المختلفة، انطلاقاً مما اكتسبناه من خبرات، وانطلاقاً من ما عندنا من قواعد نظرية وعملية.

بكل صراحة ووضوح "حفظ المصالح القومية الأمريكية في منطقتنا، ودور "الداخل" الذي يعني بالدرجة نفسها من الصراحة والوضوح، "حفظ المصالح الشخصية للفئة الحاكمة."[1]

- وفي نظري مهما تكن خطورة تلك العوائق الخارجية وهذه الموانع الداخلية فلا ينبغي للداعي للإصلاح أن يسقط ويسقط معه مخاطبيه في مهاوي القنوط واليأس من إمكانية الإصلاح، فالإصلاح موجود ومتحقق بقدر سعينا الصادق والذكي إلى اكتساب أسبابه وهكذا، وانطلاقاً من وعينا العلمي بأسبابه، فإن أفق تفكير المصلح في الإسلام، هو أفق التفاؤل والثقة في المستقبل.
- إن الإصلاح في القرآن المجيد بنية من المظاهر الاعتقادية والتفكيرية والعملية الناشئة عن التدافع والتوسط.

تلك وجهة من النظر قصدنا من خلالها محاولة تقديم فهم منهجي للإصلاح في القرآن المجيد. والفهم المنهجي لئن رسَّخ الشمول في النظرة إلى أسباب الإصلاح القرآني وإلى مظاهره، يبقى مجرد خطوة، نعم هي ضرورية وحتمية، ولكنها على كل حال مجرد خطوة أولية لا تغني عن خطوة الفهم المنهجي والشمولي للواقع الحالي المحلي والإقليمي والدولي الذي يعيش بين أحضانه المسلمون، وهو واقع -وكما نعلم جميعاً- قد بلغ مراتب مخصوصة من التعقيد، وبني ولا زال يبنى في سياق حضارة عالمية،

(١) الجابري، **في نقد الحاجة إلى الإصلاح**، مرجع سابق، ص٢٣٤.

وحضارة معولمة تختص بالتسارع في ابتكاراتها العلمية، وفي مستجداتها الدولية، وفي تقنياتها التواصلية، وهـو ما عقدنا العـزم على إنجازه في المستقبل إن شاء الله.

الحمد لله الـذي تتـم بنعمته الصالحـات، والصلاة والسلام على نبينا محمـد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

والله الموفق

مراكش في: ١٩ رمضان الأبـرك ١٤٣٦هـ

الموافق لـ ٠٦ يوليوز ٢٠١٥م

المراجع

- الأصبحي، أبو عبد الله مالك بن أنس. **الموطأ**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.).
- الألوسي، شهاب الدين محمود. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار الفكر، (١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م).
- البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، المنصورة: دار ابن رجب، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
- بدران، عبد القادر بن أحمد. **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، بيروت: دار المسيرة، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٩٨٧م.
- التيجاني، عبد القادر حامد. الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم وبناء النظرية، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع ٦٦، ٢٠١١م.
- الجابري، محمد عابد. **في نقد الحاجة إلى الإصلاح**، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥م.
- ابن الجوزي، **بستان الواعظين ورياض السامعين**، تحقيق أيمن البحيري، بيروت، لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٢، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٨م).

- حامدي، عبد الكريم. **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).
- الحرّاني، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، تحقيق: علي بن محمد العمران، جدة والرياض: المجمع العالمي للفقه الإسلامي ودار عالم الفوائد للنشر، ١٤٢٩هـ.
- الحسني، إسماعيل. **الاختلاف والتفكير في القرآن الكريم**، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م).
- الحسني، إسماعيل. **الأستاذ علال الفاسي وكتابه النقد الذاتي**، كتاب قيد النشر في المستقبل القريب إن شاء الله.
- الحسني، إسماعيل. **الاقتراض البنكي والاضطرار الشرعي**، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط٢، ٢٠١٣م.
- الحسني، إسماعيل. الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٧، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- الحسني، إسماعيل. **تدبير الشأن الديني في المغرب الراهن ومفهوم التوسط في الإسلام**، ندوة الخصوصية الدينية المغربية ومساهمتها في مواجهة الغلو والتطرف، مراكش: كلية الآداب، ٣٠ ماي ٢٠١٥م.
- الحسني، إسماعيل. **فقه العلم في مقاصد الشريعة الأعلام المجالات المفاهيم**، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط١، ٢٠٠٤م.
- الحسني، إسماعيل. قراءة في كتاب "مفهوم الترتيل في القرآن الكريم النظرية والمنهج"، **مجلة الترتيل**، العدد ١، ٢٠١٣م.

- الحسني، إسماعيل. **مقاصد الشريعة وأسئلة الفكر المقاصدي دراسة في أسئلة التدقيق المصلحي والتوظيف المنهجي**، الرباط: منشورات الرابطة المحمدية، ط١، ٢٠١٣م.

- الحسني، إسماعيل. **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م و٢٠٠٥م.

- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. **تفسير البحر المحيط**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، **تفسير الخازن «لباب التأويل في معاني التنزيل»**، تحقيق: عبد السلام شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون**، بيروت: دار الجيل العربي، (د. ت.).

- دروزة، محمد عزة. **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- الدغامين، زياد خليل. إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٤، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر. **التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»**، تقديم وتحقيق: هاني الحاج وعماد زكي البارودي، القاهرة: المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٣م.

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، بيروت: دار النفائس، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٣، ٢٠٠٢م.
- رضا، محمد رشيد. **الوحي المحمدي**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١٠، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
- رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، تحقيق: فؤاد السراج عبد الغفار، القاهرة: المكتبة التوفيقية، (د. ت.).
- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله. **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط٣، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.).

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، تحقيق: محمد عثمان الخشت، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).
- الشافعي، محمد بن إدريس. **ديوان الإمام الشافعي**، تحقيق وشرح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
- الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله التركي، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع بيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، (د. ت.).
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٧م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، (د. ت.)، ج١، ص١١٦.
- عبادي، أحمد. **مفهوم الترتيل في القرآن الكريم، النظرية والمنهج**، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م.

- عبد الرحمن، طه. "تعددية القيم ما مداها؟ وما حدودها؟"، **مجلة قضايا إسلامية معاصرة**، العدد ٢٠-٢١، ٢٠٠٢م.

- ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، ضبط ومراجعة: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ط٢، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

- عبد الفتاح، سيف الدين. **العولمة والإسلام رؤيتان للعالم**، دمشق: دار الفكر، ط١، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

- العجلوني، إسماعيل بن محمد. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، صيدا: المكتبة العصرية، ط١، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

- العروي، عبد الله. **مفهوم الدولة**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٨، ٢٠٠٨م.

- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: المجلس العلمي بتارودانت، الرباط: وزارة الأوقاف، (د. ت.).

- العقاد، عباس محمود. **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، القاهرة: المؤتمر الإسلامي، ط١، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).

- العلواني، طه جابر. **أبعاد غائبة في فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة**، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).

- الغامدي، علي خميس. **الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي**، مكة المكرمة: دار طيبة الخضراء، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **جواهر القرآن**، تحقيق: الشيخ محمد رشيد رضا القباني، بيروت: دار إحياء العلوم، ط٢، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
- الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، دراسة وتحقيق: إسماعيل الحسني، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).
- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ﷺ، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الكتاب العربي، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن محسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
- قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، القاهرة: دار الشروق، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط٣٠، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، مجلد ٤، ج١٢، ص١٩٣٣.
- قنصوه، صلاح. **نظرية القيمة في الفكر المعاصر**، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨١م.

- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- ملكاوي، فتحي حسن. "التزكية في منظومة القيم الحاكمة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٧، ٢٠٠٩م.
- ملكاوي، فتحي حسن. "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٩، ٢٠١٠م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، (د. ت.).

الكشاف

أ

ابراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٥٨، ١١٢.

اتساق: ٣٦، ٥١.

اجتهاد: ٤٠، ٤٩.

أحزاب (واقعة): ٤٢.

إحسان: ١٥، ١٩، ٢٢، ٩٦.

اختلاف: ٣٣، ٣٤، ٣٩، ٦٠، ١٠٩، ١٢٠.

إدراكات متقابلة: ٣٣.

آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٧٥، ٨٢.

أدوات التوازن: ٣٢.

إذلال: ٢٢.

استصلاح: ٢٠.

استعمار: ٢٣، ١٤١، ١٤٢.

استعمالات قرآنية: ٣١.

استعمالات لغوية: ٢٢.

استغراق: ١٩.

استفهام: ١٦.

استقامة: ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٧، ٦١، ٦٤، ١٢٣، ١٤٣.

استقراء: ١٥، ٧١، ٨١، ٩١، ٩٨، ١٠٨.

استئصال وجودي: ٣٢، ٤١.

اسم التفضيل: ٤٧.

اسم الفاعل: ٢١.

الأصبحي، مالك بن أنس: ٧٨.

أصحاب الأيكة: ١٣.

إصلاح الاعتقاد: ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٩، ٨١، ١٤٤، ١٤٥.

إصلاح التفكير: ٧١، ٨١، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ١٤٤، ١٤٥.

إصلاح قرآني: ١٢، ١٨، ٢٣، ٢٦، ٨٣، ٨٥، ٩١، ٩٧، ١٠٣، ١٤٥، ١٤٩.

إصلاح نفساني: ٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٨.

أصلح: ١١، ١٨، ٧٨، ١٢٩، ١٣٠.

إعمار: ٢٣، ١١٧، ١٣١، ١٤١، ١٤٢.

أفعال صالحة: ١٩.

الألوسي، محمود شهاب الدين: ٢٣، ٤٦، ١٤١.

أمراض جرثومية: ٣٦.

إمساك منهجي: ١٨، ٢٢.

أنواع الفقه: ١٦.

أهل الرس: ١٣.

أهل المقاصد: ١١.

ب

بدر (معركة): ٤٢، ٤٥، ١١٥.

بعد نفساني: ٩١.
بغداد: ٤٢.
بناء روحي: ٥٨.
بنو إسرائيل: ١٣٨.
بنية: ١٤، ٢٢، ٢٦، ٩١، ٩٨، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩.
بيان: ٢٢، ٥٣، ٦١، ٧١، ٧٣، ٨٦، ١٠٩، ١١٢، ١٣٥.
بيئات ملوثة: ١٥.

ت

تحسينيات: ١١.
تحلية: ٩٢، ٩٤.
تحليل لغوي: ١٨، ٢٢.
تحير: ١٦.
تخريب: ١٣، ١٦، ٢٢، ٣٢، ١١٨، ١٣١.
تخصص علمي: ٨٦.
تخلية: ٩٢، ٩٤.
تدافع: ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٦٥، ٧٩، ٩١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩.
تدافع توازني: ٣٤.
تدافع ذاتي: ٣٦.
تدافع سلمي: ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤٢.
تدافع علمي: ٣٩، ٤٠.
تدافع نقدي: ٤٩، ٥٠، ٥٤.
ترتيل: ٢٥.
تزكية: ٣٦، ٩٢، ٩٦، ٩٧، ١٤٥.
تطرف: ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦١، ١٤٥، ١٤٦.
تعارف: ١٤، ١٥، ٣٣، ٥٥، ٥٨.
تعجب: ١٦، ٥٢، ٥٣.
تعليل: ٧٢، ٨٦، ١٢٠، ١٢٥.
تعمير: ١٣، ٥٨، ١٤٢.
تفاعل: ٩٨، ١٠٨، ١١٢، ١١٥، ١٤٥.
تفاعل إيجابي: ١١٢، ١١٥، ١٤٥.
تفاعل سلبي: ١٠٨.
تكبر: ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١.
تلاوة: ٢٥.
تمام الاستقامة: ٢٣، ٢٦.
تناسق: ٦٩.
تنافس عملي: ٣٩.
تناقض: ٢٩، ٣٣، ٣٦، ٤٥، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٦٥، ٨٥، ١٢١، ١٤٥.
تنشئة اجتماعية: ٣٦.
توحيد: ٣٦، ٧١، ١٣٠.
توزيع الثروات: ١٥.
توسط: ٢٩، ٥٥، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٩٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩.

ث

ثمود: ١٣، ٥٩.

ج

الجابري، محمد عابد: ١٠، ١٤٨.

جدل: ٤٠.
أبو جعفر، يزيد بن القعقاع (القارئ): ١٠٩.
جماع المفاسد: ١٢٧.
جمود: ٢٩، ٤٠، ٤٥، ٤٩، ٦٥، ١٤٥، ١٤٦.

ح

حاجيات: ١١، ١٠٠.
حديث: ١٣، ١٤٠.
الحراني، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: ٢٣.
الحضرمي، عبد الرحمن بن خلدون: ٥٧.
حطين: ٤٢.
حقوق: ٢٢، ٥٢، ٥٦، ٥٧، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٥.
حكم قرآني: ٨٦.
حواء: ٧٥.
أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: ٥٣، ١٣١.
أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد: ٢٤.

خ

الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١٣١، ١٣٢.
خطاب إصلاحي: ١٠، ١١، ١٣، ١٤، ٢٢، ١٤٩.
خطاب إعلامي: ٩.
خطاب قرآني: ١٢، ٢٢، ١١٢، ١١٦.

د

دروزة، عزة: ١٢، ١١٩.
الدغامين، زياد خليل: ٥٣.
دقة الاستنباط: ٤٧.
دلالات إصلاحية: ١٤١.

ذ

ذهنية إستدلالية: ٧٨.

ر

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: ٤٣، ٤٦، ٩٢، ٩٩.
رضا، محمد رشيد: ٧٣، ٩٥، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٣٠.

ز

الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر: ١٢.
الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: ٨٧، ١١٨، ١٤٠.
زندقة: ٧٤.

س

سحر البيان: ٥٣.
سد ذرائع الشرك: ٧٢.
سليمان، صالح: ٧٧.
السموأل: ٤٦.
سنة: ٣٣، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٦٠، ٦٤، ٩٢، ١٢٠، ١٣٦، ١٤٦.
سنة الاختلاف: ٣٣.
سنن قرآنية: ٣٣.
سوريا: ٤٢.
سياسة: ٩٣، ٩٧، ١٢٧.
سياسي: ٩، ٣٨، ٧٤، ١١٧، ١٢٦، ١٣١،

١٣٤، ١٤٠، ١٤٦، ١٤٧.
سياق قراني: ٤٦.
سيرة: ٥٢، ٩٢.

ش

الشاطبي، أبو اسحق إبراهيم بن موسى: ٦١، ٧٢، ١٤٣.
شريعة: ١١، ٦٥، ٨٣، ٨٧، ١٢٥، ١٤١.

ص

صراع: ١٥.
صيغة المصدر: ٢١.
صلاح: ١٠، ١٥، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٩، ٣٢، ٤١، ٤٢، ٥٥، ٦٤، ٦٥، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٩، ٨١، ٨٨، ٩٨، ١٠٠، ١٠٨، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤.
صلاح الإنسان: ١١.
صلاح المجتمع: ١١، ٦٨.
صليبية: ٤٢.
صيغ لغوية: ٢٢.

ط

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: ٢٤، ١٣٩.
طغيان: ١٥، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٠.

ع

عاد: ٥٩، ٦٠.
ابن عاشور، محمد الطاهر: ١٣، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٣، ٣٥، ٤٦، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٧٣، ٧٩، ٨٧، ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٤١، ١٤٧.
عاصم (القارئ): ١٠٩.
عبادي، أحمد: ٢٤.
ابن عبد السلام، العز: ١٢.
عبد الفتاح، سيف الدين: ١٤.
عبد القادر، التيجاني: ٢٤، ٢٨.
عدل: ٢٢، ٣٧، ٧٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ٥٨.
عدوان: ١٩.
العراق: ٤٢.
عرفات: ٣٠.
العروي، عبد الله: ٩.
العقاد، عباس محمود: ٦٢.
عقل: ١١، ٥٨، ٦٧، ٩٩.
عقل إنساني: ٣٣، ٧٢، ٧٩.
عقل علمي: ٢٧.
عقل نقدي: ٥٤.
عقوبات: ١١.
علة: ٦٣، ٨٦، ١٠٢.
علل مصلحية: ٨٦، ١٠٢.
علم: ٩، ١١، ١٦، ٢٧، ٣٣، ٤٠، ٦٤، ٦٥، ٨٤، ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠٩، ١٢٢، ١٤٢، ١٤٧.

علم الكلام: ١١.
علم إنساني: ١٤.
علماء الأصول: ١١.
علماء الخطاب: ١١١.
علماء القرآن: ١٢.
العلواني، طه جابر: ١٠، ٩٧.
عمارة: ٢٢، ٥٣، ٥٩، ٩٣، ١٤١، ١٤٢.
عمران: ١٣، ١٦، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ١٣١، ١٤١.
عمران بشري: ٥٣، ٥٨، ٥٩.
عمل صالح: ٩، ١٣، ١٤، ١٩، ٦٧، ٦٨، ٩٥، ١٢٣، ١٤٣.
عمل نفساني: ٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٤٣.
عنف عسكري: ٤١.
ابن عياش، أبو بكر (القارئ): ١٠٩.
عين جالوت: ٤٢.

غ

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: ١٠٧.
غش: ٣٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٠.

ف

الفاسي، علال: ٨٢، ٩٢.
فخر الدين الرازي، محمد بن عمر: ٣٦، ٣٧، ٤٠، ١٢٥.
فرائض إسلامية: ٢٦.
فرعون: ٣٩، ٥٩، ٦٠، ١٢١، ١٢٥، ١٢٦.
فساد: ١٥، ١٦، ٢٠، ٢٤، ٢٩، ٣٥، ٤٠، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦٥، ٦٩، ٧٢، ٧٩، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧.
فساد التدبير: ١١٨، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠.
فساد بدني: ١١٠.
ابن فضل، الحسين: ٨٣.

ق

القادسية: ٤٢.
قارون: ١٢٦.
قِبلة: ٢٤، ٢٥.
القرطبي، محمد بن أحمد: ١٤١.
قرينة المقام: ١١٨.
قشرة اتصالية: ١٤.
قصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١١٢، ١٣٦، ١٣٧.
قصص قراني: ١٢.
قضية الإصلاح: ٢٩، ٦٥، ١٤٦.
قطب، سيد: ٥٠، ٥٧، ١١٤، ١٢٩.
قلب سليم: ١٧.
قواعد العدل: ١٩.
قوة الدفع العاقلة: ٣٤، ٣٥.
قياس: ٩٢، ٩٧.
ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: ٩٧.
قيمة: ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٩٧، ١٤٢.

ك

كتاب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١١٨.

كراهية البغي: ١٩.

الكسائي، أبو الحسن علي بن حمزة: ١٢٣.

م

مال: ١١، ١٦، ١٨، ٤٠، ٤١، ١٢٣، ١٣٢، ١٤٦.

مجاز: ٣٠.

مجتمعات الأنام: ١٨، ٣٤.

مجوسية: ٤٢.

المحكومون: ٩، ١٠، ١٢٥.

مراعاة المقاصد: ٦٠.

مرجوح: ٤٧.

مصالح: ٣٣، ٣٤، ٤١، ٦٠، ٧٣، ٨١، ١٠١، ١٠٧، ١٢٥، ١٢٧، ١٣١، ١٣٦، ١٤٥، ١٤٩.

مصالح خاصة: ٦٠.

مصالح دنيوية: ٧٣.

مصلحة: ١٠، ١١، ١٢، ٢٠، ٤٩، ٥٦، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٩٢، ١٠٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٣.

مصلحة التآلف: ١٥.

مصلحة بدنية: ١٠٦.

مصلحون قدامى: ١٤.

مظنة المشقة: ١٠٤.

مظهر سلمي: ٣٦، ٣٩.

معاملات: ١١، ٨٦.

معتزلة: ١١.

معرفة علمية: ٢٧، ٥٢.

معنى توازني: ٣٣، ٣٥.

مغول: ٤٢.

مفاسد: ١٥، ٣٤، ٣٨، ٤٤، ٧٣، ٨١، ١١٢، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨.

مفاهيم قرانية: ٢٧.

مفسدة التنافر: ١٥.

مفسرون: ١١، ١٤، ١٥، ٤٦، ١١٩، ١٢٢، ١٣٢، ١٣٨، ١٤١.

مقاربة مستأنفة: ١٧.

مقاصد قرآنية: ٩٧، ١١٧، ١٣٤.

مقام: ١٦، ٣١، ١١٧، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٩.

مقام المنازلة السلمية: ٣٢.

مقام المواجهة العسكرية: ٣٢.

مقصد إصلاحي: ٤٦، ٤٧، ١٠٣.

مقصد مصلحي: ٩٩.

ملازمة المنسوخ: ٤١.

ملكة سبأ: ١١٨.

ملكية فردية: ٥٧.

مناسبات: ١١.

مناظرة: ٤٠.

مواءمة: ٢٤.

ن

ناسخ: ٤١.

نافع: ٢٢، ٣٥، ٥٧، ٥٩، ٦٥، ١٠٩.

نجاسات: ١٠٢، ١٠٥.

نسخ قراني: ١٢.

نسل: ١١، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٧٥.

نظام اجتماعي: ٢٤، ٨٧.

نفس: ١١، ٣٣، ٣٦، ٤١، ٥٥، ٥٨، ٧٢، ٨١، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١١٠، ١١٤، ١٢٩.

نفل: ١١٤، ١١٥.

نقد ذاتي: ٨٢.

نوع بشري: ٤٢، ٥٨.

و

وسائل الاتصال: ١٤.

وسط: ٦١، ٦٢، ٦٤، ٩٩، ١٢٧.

ي

اليرموك: ٤٢.

يهود: ٤٢، ٤٥.

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC

هذا الكتاب

التفكير في الإصلاح، الذي اكتنزه القرآن المجيد، مقاربة مستأنفة لسؤالين متلازمين: أولاً: كيف يكون فهمنا للإصلاح في القرآن المجيد فهماً منهجياً؟ ثانياً: كيف نطبق الإصلاح الذي جاء به القرآن على الأمة في كل زمان وفي كل مكان وفي كل مجتمع من مجتمعات الأنام؟ على الرغم من وجاهة السؤال الثاني فإنه مسبوق بالسؤال الأول، لذا آثرنا في هذا الكتاب أن نبدأ بدراسته ومعالجته.

نلح في هذا الكتاب على الوعي النقدي بالعوائق التي اعترضت وتعترض دائماً الإصلاح، نعم لا شك في ضرورة بناء وعي نقدي سليم بذلك، ولكن لا ينبغي للمصلح أن يسقط ويسقط معه مخاطبيه في مهاوي القنوط واليأس من إمكانية تحقيق الإصلاح. فهو دائماً موجود ومتحقق بقدر حرصنا على اكتساب أسبابه التي تجعلنا غير جامدين ولا متطرفين في تجسيد بنائه الاعتقادي والفكري والعملي. وعليه إن أفق تفكير المصلح في الإسلام، هو دائماً أفق التفاؤل والثقة في المستقبل.

د. إسماعيل الحسني

- من مواليد مدينة مكناس بالمغرب 1963م.
- حصل على دبلوم الدراسات العليا عام 1993م، جامعة محمد الخامس- الرباط، كما حصل من الجامعة نفسها عام 2001م على دكتوراه الدولة.
- يعمل أستاذاً للتعليم العالي، جامعة القاضي عياض، مراكش/ المغرب. عمل سابقاً أستاذاً لمقاصد الشريعة، بمؤسسة دار الحديث الحسنية- الرباط.
- من أبرز مؤلفاته المنشورة: نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، فقه العلم في مقاصد الشريعة، التجديد والنظرية النقدية، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها للأستاذ علال الفاسي، دراسة وتحقيق، الاختلاف والتفكير في القرآن الكريم، فضلاً عن الكثير من الدراسات والمقالات المنشورة وطنياً ودولياً.

ISBN 978-1-56564-801-2
9 781565 648012

المطابع المركزية
عمان - الأردن

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC